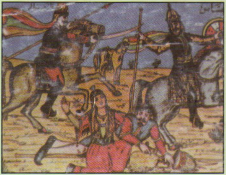
الهيئة العامة لقصور الثقافة
مكتبة الدراسات الشعبية

الأسطورة والإسرائيليات



د. لطفى حسين سليم

52

الأسطورة والإسرائيليات

فى التراث العربى القديم

د. لطفى سليم

٢٠٠٠

• مكتبة الدراسات الشعبية
• سلسلة شهرية
• تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور ونشر نصوص وسير الأدب الشعبى

• الأسطورة والإسرائيليات
• الدراسات الشعبية (٥٢)
• لوحة الغلاف : الزير سالم يقاتل الجساس. رسم مطبوع على ورق. يباع فى الأسواق العربية.
• القاهرة - ٢٠٠٠
• الطبعة الأولى

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ شارع أمين سامى قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

رئيس مجلس الإدارة
على أبو شادى

أمين عام النشر
محمد كشيك

رئيس التحرير
خيرى شلبى

مدير التحرير
محمود خير الله

مستشارو التحرير
د. أحمد أبو زيد
د. نبيلة ابراهيم
د. أحمد مرسى

هذا الكتاب

نحن والتراث

كان من المقرر أن نرفض نشر هذا الكتاب فى هذه السلسلة لبعده عن تخصصها الحاسم والواضح . ذلك أن الأسطورة أصبحت علما قائما بذاته ، كما أن علاقتها بالتراث المصرى قد غطّتها أبحاث لا حصر لها فى ميدان الدراسات الأدبية . وكانت نية الرفض مدعومة بأن مؤلف الكتاب الدكتور لطفى حسين سليم قد نشرنا له كتاباً عن «الطفل فى التراث الشعبى» منذ شهور قليلة ومن الواجب أن نترك الفرصة لغيره .

ولكننا بعد إعادة فحص للكتاب وجدنا أن الباحث قد تناول الأسطورة والإسرائيليات من زاوية النشاط الإبداعى الشعبى حتى وإن كانت دوافعه شريرة أحيانا وقد وضع المؤلف هذه الدوافع تحت مجهره المُكبِّر .

ومما حفزنا لنشر هذا الكتاب أن الدراسات المتخصصة في علم الأساطير عندنا قليلة بل ونادرة إن لم تكن شديدة الندرة لدرجة أننا لا نكاد نتذكر كتابا ثانيا إلى جانب كتيِّب الدكتور أحمد كمال زكى عن الأسطورة، وقد نشر منذ سنوات بعيدة عن سلسلة المكتبة الثقافية. ورأينا أن كتاب الدكتور لطفى سليم قد يفيد القارىء والباحث معا في محاولة لاستكناه الأسطورة وهي داخلة في عصب القوام الثقافي للشعوب العربية. والمؤكد أنه كتاب مفيد يستحق أن نستثنيه من الحدود الصارمة لتخصص السلسلة «مكتبة الدراسات الشعبية»، فإن لم يكن ابنها فإنه ابن عمها. وإننا لواثقون أن هذا الكتاب سيكون إضافة لرصيد قارىء هذه السلسلة من معلومات ستساعده على فهم تراثه كثيرا وشكرا لكم.

خيرى شلبى

المدخل

أ- الاتجاه الأسطوري:

نقصد بالاتجاه الأسطورى خروج العقلية البشرية - بدائية أم حضارية - عن الواقع والمنطق، وخضوع هذا الواقع للخيال المفسِّر لما فى الطبيعة، والكون، والحياة من مظاهر وأحداث تفسيرا بعيدا عن منطق تلك العقلية التى تقوم بهذا التفسير.

ولذلك ترتبط الأسطورة - دائما - ببداية الإنسانية أو ببدائية البشرية حيث كانوا يمارسون السحر، ويؤدون طقوسهم الدينية التى كانت - فيما يُقال - سعيا فكريا لتفسير ظواهر الطبيعة[١]..

ومعنى ذلك أن الاتجاه الأسطورى وجد مع البدايات الأولى للبشرية، وفجر التاريخ حيث اختلط السحر بممارسة الطقوس الدينية تقربا واسترضاء للآلهة.

ب ـ الأسطورة بين الواقع والخيال:

إذا تطابق سلوك الإنسان وتفكيره مع اتجاه الحياة والمجتمع فهو الواقع ويثمر هذا السلوك والتفكير إذا استفيد منه ـ عمليا ـ فى حياة الإنسان وفى تعامله مع الطبيعة والمجتمع من حوله.

أما إذا تجاوز السلوك والتفكير منطق الحياة والكون وبُولغ فيه أو تجاوز العقل والمنطق والواقع فهو الخيال.

وحينما نتحدث عن الأسطورة وصلتها بالعقلية البدائية، فإننا نقول إنها وجدت وعاشت منذ المراحل الأولى للعقلية البدائية التى اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، بحيث يصعب على أى باحث التمييز بين حدود الواقع وحدود الخيال، خاصة فى تلك المرحلة الأولى من حياة البشرية التى كانت الأسطورة فيها جزءاً من طقوس العبادة. وفى المراحل الأولى لفجر التاريخ اختلطت الحقيقة بالخيال عند سرد الأحداث أو تسجيلها، ومن ثم تداخلت الخوارق والمعجزات فيها، وأصبح البطل التاريخى ـ حينذاك ـ مزيجا من الإله والإنسان، وقد تجتمع فيه قدرات خارقة لناموس الطبيعة، يتعدى بها قوانينها أو يغيرها أو يوجهها فى خدمة أهدافه، مثل بعض أبطال السير الشعبية.

جـ ـ العلم والأسطورة:

قـد يبـدو من الوهلة الأولى أن هناك بوناً شـاسـعاً بين العلم والأسطورة في الاتجاه والهدف، ولكن الحقيقة غير ذلك. إذ أن العلم والأسطورة ـ كفن ـ يلتقيان في كثير من النواحي فكل منهما يصف، ويعلّل، ويستخدم الخيال.

فالعلم وصف والفن وصف للأشياء، فإن أية «لوحة مرسومة أو لقطة بالكاميرا أو لحن موسيقى، أو عمل أدبي شعري أو قصصي هو وصف انساني لهذا الكون بما فيه الإنسان بطبيعة الحال، ولا تخرج أية نظرية أو قانون علمي عن كونها وصفا انسانيا أيضا للكون، ولسلوك الأشياء فيه. وهذا الوصف الأخير لايدعي ولا يستطيع الإدعاء أنه حاسم أو نهائي»[٢].

والعلم والفن ـ ومنه الأسطورة ـ يعللان بعض الظواهر في الكون والطبيعة مع اختلاف وسيلة التعليل، فالعلم «يعلل الضوء الأحمر الباكر بطول الموجات المنبعثة من الشمس في هذا الوقت، والأدب يعلل نفس الظاهرة مثلا بأنها النار التي أشعلها الفجر معلنا قدومه للعالم، فكل من العلم والفن علل هنا نفس الظاهرة بإمكانات لغته وبالمرحلة الفكرية التي تتبعها ـ ونحن نقبل تعليل الفن اليوم ـ الذى ربما كان في يوم ما تعليلا

(علميا) ـ نقبله ونستريح له ونلتذ به لأننا نعود به إلى المراحل السابقة التي لا تزال تعيش في وجداننا، والتي كنا نشخص فيها كل شيء وتجعل له روحا وسلوكا إنسانيا حتى تفهم سلوك الظواهر الطبيعية آنذاك»[٣].

والخيال هو «تنظيم وحدات الكون والواقع بشكل مختلف قليلا أو كثيرا عن تنظيمها المألوف فهو واقع منظم تنظيماً انسانياً جديداً، ولهذا يجب ألا نخص الأدب بالخيال، والعلم بالواقعية لأن كلا من الفنان والعالم يشتركان في استخدام الخيال بمفهومه هذا»[٤] وللخيال ـ أيضا ـ مفهوم افتراضي أو استكشافي لوحدات يشترك فيها الفن والعلم أيضا، ويبدو ذلك في العلم «في شكل تصور تركيب الذرة التي لم (يرها) أحد مطلقا، وفي الأدب في تصور ما يحدث في العالم الآخر في شكل الرحلات الخيالية لهذا العالم في الآداب المختلفة، ومن أشهرها رحلة المعري ودانتي»[٥].

ولن نبعد كثيرا إذا ما قلنا إن العلم والفن مشتركان في التنبؤ، فلقد تنبأ الفن ـ ومنه الأسطورة في قصص ألف ليلة.. «بطيران الإنسان في الهواء (بساط الريح) قبل تحققه علميا في الطائرة والصاروخ»[٦].

وقد بدأت الأسطورة فى ممارسات الحياة البدائية حقائق روحية تحترمها الجماعات فى صورة شعائر مقدسة.

كما حاول الباحثون ـ فى تفسيرهم للأساطير ـ إرجاعها إلى أصولها الأولى ومحاولة تفسيرها، ومعرفة دلالاتها، فشرع «المغنيون بها يفتشون عما تنطوى عليه فى تصورهم من دلالات خفية، ورأى بعضهم أن أسماء الآلهة فى أساطير هوميروس إنما تدل على الملكات الإنسانية، والعناصر الطبيعية، كما رأى فريق آخر من المفكرين أن هذه الأساطير عبارة عن مجموعة من الرموز والمجازات والقوى والمُثل، ولم تعد الآلهة عند أولئك وهؤلاء سوى التشخيص لمبادىء أخلاقية ونواميس الطبيعة وظل اتجاه آخر يحتكم إلى العقل فى تفسير الأساطير، ويذهب أصحابه إلى أن الآلهة كانت فى أصلها طائفة من الملوك بلغوا من القوة والتأثير شأنا عظيما جعل الناس يتجاوزون بهم عالم الواقع إلى عالم الخوارق، ثم يؤلهونهم، ولهذا الإتجاه أهميته إذ أخرج الأساطير من عالم الوهم والخيال. ومجرد الرمز شبه الفنى إلى عالم الواقع، ذلك لأنه جعل للأساطير واقعا تاريخيا..»(٧)

ومما ساعد على اختلاط الأسطورة بالتاريخ ما ورد فى كتب

الرحالة المسلمين، ونقله المؤرخون عنهم. فقد ورد أن «كتابات الرحالة المسلمين تزخر بالقصص والحكايات الشعبية، كما تنقل لنا الكثير من الأساطير علاوة على الغرائب والطرائف. والثابت أن ما ذكر من أساطير أو عجائب ومعتقدات شعبية فى كتابات بعض المؤرخين مثل المسعودى والقزوينى يرد أصلا إلى كتب الرحالة ورواياتهم» .[٨].

د ـ الأسطورة والاسرائيليات وبداية فن الرواية أو القص:

تعرضنا ـ فيما سبق ـ لمدلول الأسطورة ـ أما الاسرائيليات فلها مدلول آخر لكنه لا يخلو من أخبار متضمنة لأساطير تمثل جانبا من الثقافة اليهودية.

إذ أن لكلمة اسرائيليات مدلولان: لغوى، واصطلاحى.

فالاسرائيليات بمدلولها اللغوى، اسرائيلية نسبة إلى بنى اسرائيل، واسرائيل هو يعقوب عليه السلام أى عبد الله، وبنو اسرائيل هم أبناء يعقوب ومن تناسلوا منهم فيما بعد إلى عهد موسى عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء حتى عهد عيسى عليه السلام، وحتى عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٩].

وعن المصطلح يقول د. أحمد مرسى:

« . .آثرنا أن نستخدم مصطلح الاسرائيليات وهو مصطلح قديم استخدمه العلماء المسلمون لكى يشيروا إلى ما أدخله اليهود فى تفسير القرآن الكريم، والحديث النبوى من زيف . . »(١٠)

كما يقول د. أبو شهبه :

« . . وإنما سميت اسرائيليات لأن الغالب والكثير منها إنما هو من ثقافة بنى اسرائيل وفى موضع آخر من كتابه، يفند أبو شهبه المصطلح بقوله :

« . . ومن التوراة وشروحها والأسفار وما اشتملت عليه، والتلمود وشروحه، والأساطير والخرافات والأباطيل التى افتروها عن غيرهم كانت معارف اليهود . وثقافتهم ، وهذه كلها كانت المنابع الأصلية للاسرائيليات التى زخرت بها بعض كتب التفسير والتاريخ، والقصص والمواعظ . .

وبناء على ما سبق نستطيع أن نشير إلى فروق بين الأسطورة والاسرائيليات من حيث :

* تشترك الأسطورة والإسرائيليات فى اتجاهها لكنهما يفترقان فى الوجود والزمن .

* الأسطورة مجهولة المؤلف وهى نتاج العقلية الجماعية ، أما

الاسرائيليات فرواتها معروفون فى المجتمع الإسلامى، وهى إنتاج فردى ليهود أسلموا كوهب بن منبه.

* الأسطورة تدور شخصياتها حول آلهة أو أنصاف آلهة أو شخصيات كانوا موضع تقديس أو تعظيم، أما الإسرائيليات فمادتها اخبارية تتدخل فى تنسيقها عقلية هؤلاء الرواة وتخيلاتهم وميولهم وأهدافهم ، ومعظم أبطالها ذات خلفية تاريخية أو واقعية.

* الاسطورة ذات اتجاه خيالى محض، أما الاسرائيليات فهى أخبار فيها من الحقائق الدينية والتاريخية الكثير، وإن غُلفت - مع التزيد والمبالغة - بخيال أسطورى مشوق.

ونرجح - مع قلة ما وصل إلينا من أساطير عربية وغير عربية - أن ما فيها هى والاسرائيليات من تفاصيل وتصورات فى الأحداث ، وحوار بين الشخصيات الاسطورية والملحمية وغيرها، يدفعنا هذا كله إلى الاعتقاد فى أن الأساطير والإسرائيليات كانت منبعا خصبا لبدايات الأدب القصصى العربى القديم الذى ضاع فيما ضاع من ثروة فكرية منذ القدم. ولعل هذا ما دفع بفاروق خورشيد إلى أن يقول:

«ولعل هذا هو الذى تسبب فى إغفال الدارسين للأدب

القصصى العربى القديم، فهو بلاشك محمل بالآثار الطقسية القديمة، وهو بلاشك أيضا وليد ما كان يسود الجزيرة العربية من أساطير تفسر ظواهر الكون، وتعلل الأحداث المؤثرة فى حياة الانسان، وتؤرخ نقلاته الحضارية فى قالب مرتبط برموز الآلهة القديمة، وما تمثل من قدرات، وما تعنى من قوى خفية تتجسد فى أبطال الخوارق، والقدرات التى تفوق طاقة البشر..»(١١)

ولم تكن الأسطورة وحدها منبعا ثريا لبدايات القصص العربى القديم، وإنما شاركت الاسرائيليات وكتب التراث العربى القديم فى ظهور وبدايات فن الرواية، وأساليب القص بعد الاسلام.

وقد أشار فاروق خورشيد إلى ما سبق فى قوله:

«..وقد أدى البحث إلى أن العرب عرفوا بالفعل هذه المعطيات الأسطورية، وأعادوا تقديمها فى أعمالهم القصصية منسوبة فى غالب الأحيان إلى أصحابها، وإن أعادو صياغتها بما يلائم فلسفتهم الجديدة بعد الإسلام..»(١٢)

ونضيف فقرة أوردها صاحب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب (التيجان) لوهب بن منبه تؤيد مقولة فاروق خورشيد السابقة:

«.. ترجع أهمية هذا الكتاب (التيجان) فى أنه كتب فى القرن الأول الهجرى، لذا فهو من أقدم النصوص التى وصلتنا والتى تحدثت عن أساطير الخلق من وجهة النظر الإسلامية مما جعله مرجعا هاما لمن جاءوا من بعده ومصدرا رئيسيا لكتب الحكايات والاساطير مثل ألف ليلة وليلة وغيرها، كما أنه ينبه بشدة للأهمية الأنثروبولوجية والفكرية لمثل هذه الكتب التى كان ينظر إليها باحتقار باعتبارها اسرائيليات دون النظر إلى أهمية هذه الاسرائيليات فى دراسة المخيلة العربية الاسلامية فى ذلك الوقت فهو يحفل بالعناصر المثيرة للأهتمام من منظور فولكلورى وعلمى وفنى..»(١٣)

ونحن إذ نتعرض للأساطير والإسرائيليات فى بعض كتب التراث العربى القديم فى التفسير والأدب والتاريخ والجغرافيا وغيرها، ندرك - من خلالها - أن أصحاب هذه الكتب التراثية كانوا قصاصين بارعى الخيال فى تصويرهم، وتفاصيل أحداثهم، وفيما يثيرونه فى المتلقى من إذكاء عنصر التشويق لديه، وتنشيط ملكة التخيل عنده، مما يفوق أروع القصص والروايات الحديثة شرقا وغربا.

وتأكيدا لما سبق فإن كتاب التيجان مع كتاب عبيد بن شريه

(فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال) يساهمان فى التنبؤ بإرهاصات وجذور قديمة لنشأة فن الرواية أو القص. فوهب وعبيد يطلقان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع، ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة، كما يدخلان فى تاريخهما الكثير من الحوادث التى لا أصل لها، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخى أكثر من أى نعت آخر، ونحن نعدهما إمتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية(١٤).

هـ ـ أشهر رواة الأساطير والإسرائيليات العربية:

تعرضت كتب التراث لكثير من الاسرائيليات والأساطير دون تمحيص أو تدقيق أو بحث واستقصاء.

ولم يجهد الباحثون أنفسهم للوصول إلى الحقيقة أو التفريق بين الصادق والكاذب منها، فنقلوها بما فيها من ادعاءات وخرافات،

ومن أشهر نقلة الاسرائيليات والأساطير هم: وهب بن منبه، وعبيد بن شريه، وكعب الاحبار

وكان هؤلاء يهودا اعتنقوا الاسلام وتمسكوا به، وأخلصوا له.

أولا : وهب بن منبه الصنعاني اليمني:

يعد وهب بن منبه من خيار التابعين، وكذلك أخوته همام، وغيلان، ومعقل. ولد وهب في آخر خلافة عثمان ـ رضي الله عنه، ثم تولى منصب القضاء في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩هـ ـ ١٧١٧م) وحبس فترة من الزمن، وكان يدين أساسا بمذهب القدرية، لكنه تبرأ منه فيما بعد [١٥].

توفي وهب بصنعاء، واختلف في سنة وفاته فهي سنة ١١٠ هـ أو سنة ١١٤هـ.

كان وهب من أكثر مؤلفي العصر الأموي تصنيفا، وقد تميز كمؤرخ عن مدرسة المدينة، ويصفه ياقوت الحموي في معجمه بأنه الاخباري صاحب القصص، وأنه على معرفة وثيقة بمأثور أهل الكتاب، وإليه ترجع معارفه حول خلق العالم، وتاريخ الأنبياء، وبني اسرائيل.

ومن آثاره التي بقي منها القليل نذكر:

١ ـ كتاب الملوك المتوجه من حمير، وأخبارهم، وقصصهم،

وقبورهم، وأشعارهم.

٢- كتاب المبتدأ، وقد ذكر المسعودى هذا الكتاب تحت اسم المبتدأ والسير.

٣- كتاب المغازى، وهو يضم أقاصيص من تاريخ اليهود.

٤- قصص الأنبياء، هذبه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هشام الحجرى الذى رواه عن ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ.

٥- رسالة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم.

٦- حكمة وهب، وقد ذكر ابن سعد فى الطبقات بأن وهب روى عددا منها فى كتبه[١٦]

هذا إلى جانب كتابين أشار إليهما حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وهما: (الإسرائيليات)[١٧] و(كتاب الفتوح)[١٨]

ولعل كتاب التيجان لوهب بن منبه هو الوحيد الذى وصل إلينا من الكتب المذكورة سابقا وهو من رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه رضى الله عنهم.

ويورد صاحب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب التيجان أهمية هذا الكتاب فيقول: «.. ترجع أهمية هذا الكتاب فى أنه كتب

في القرن الأول الهجرى، لذا فهو من أقدم النصوص التى وصلتنا ، والتى تحدثت عن أساطير الخلق من وجهة النظر الاسلامية . .إلخ[١٩] أما عن المادة والأخبار التى جمعها وهب فى كتاب التيجان وغيره من الكتب التى ألفها فإنها تعتمد على أخبار أهل الكتاب يهود ومسيحيين من كتبهم المقدسة . . وقيل إنه قرأ سبعين أو ثلاثة وسبعين أو اثنين وتسعين كتابا منها [٢٠] .

فإذا أضفنا -إلى ما سبق - معرفته للغات العبرية والسريانية - والآرامية ، والحميرية[٢١] فإن الصورة تكتمل لثقافة وهب .

ثانيا : عبيد بن شريه الجرهمى:

لم يتعرض مرجع - على حد علمى - لحياة عبيد بن شرية بالتفصيل ، فهو مجهول المولد والنشأة كما هو مجهول تاريخ وفاته على وجه التحديد .

وكل ما وصل إلينا أشتات متناثرة فى كتب التاريخ ، وأخبار المعمرين ، واختلطت بأخبار وهب بن منبه إلى درجة أن الأستاذ (كرنكو) يصرح بأن عبيد بن شرية شخص خيالى لا وجود له[٢٢] .

وهو من اليهود الذين أسلموا ، وكان موطنهم الأصلى

اليمن، وقد عاصر عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضى الله عنهما - ثم معاوية بن أبى سفيان الذى استدعاه من (الرقة) حيث كان يقضى بقية عمره المعمر مع عائلته.

هذه الأخبار المتناثرة عن عبيد، عرفنا بعض تفاصيلها من خلال موقف معاوية بن أبى سفيان منه - فقد كان أفضل لذات معاوية فى آخر عمره المسامرة، وأحاديث من مضى. فنصحه عمرو بن العاص - أشباعا للذته - باستقدام عبيد، قائلا له:

لو بعثت إلى الجرهمى الذى بالرقة من بقايا من مضى، فإنه أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقى اليوم فى أحاديث العرب وأنسابها وأوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر(٢٣) فبعث إليه معاوية فدخل عليه شيخ كبير السن، صحيح البدن، ثابت العقل، منتبه، ذربه اللسان كأنه الجذع(٢٤).

ويفصح معاوية عن أسباب استقدامه فى قوله:

«.. إنى أردت اتخاذك مؤدبا لى، وسميرا ومقوما، وأنا باعث إلى أهلك، وأنقلهم إلى جوارى، وكن لى سميرا فى ليلى، ووزيرا فى أمرى(٢٥)»

وقد اختلف فى عمر عبيد - حينئذ فتراوحت الآراء بين المائة والخمسين عاما، والمائتين والعشرين عاما.

ولقد صدق حدس معاوية فى عبيد، وفى قدرته على الإمتاع والمؤانسة فى سمره الليلى عند معاوية.

ولقد كان كتاب (أخبار عبيد بن شريه الجرهمى فى أخبار اليمن، وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال، والحمد لله على كل حال(٢٦) ثمرة هذا السمر الليلى، ويعتمد الكتاب فى إيراد مادته على الحوار الدائر بين معاوية وعبيد حول أخبار السابقين مع استطراد فى الأسلوب والعرض.

وقد غلب على أخباره الخيال البدائى المبالغ بل المغرق فى المبالغة، وخرجت أخباره قصصا وخرافات وأساطير عن ملوك اليمن، لا تختلف فى شيء عما كان فى الجاهلية، فى غالب الظن، بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدوينا للقصص التاريخية التى كانت شائعة فى الجاهلية، وخاصة فى جنوب بلاد العرب، وهى قصص تاريخية لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبى خيالى(٢٧).

ويقيم حسين نصار كتاب عبيد، فيعتبره ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين، يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، ويحليها الشعر والقطع النثرية

الارجوانية، والقصص الاسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين، ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الاسلامية المتأخرة من أمثال ملاحم عنترة، والظاهر بيبرس، والأميرة ذات الهمة، ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها وفصاحته العربية، ولعلنا لا نشتط كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية التى تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى(٢٨).

ثالثا: كعب الأحبار:

هو كعب بن مانع الحميرى، كان يهوديا، عالما بكتبهم، حتى كان يقال له: كعب الحبر، وكعب الاحبار، ولقب كعب بالحبر (وهو المداد) لكثرة كتابته، وملازمته له واختلف فى تاريخ اسلامه وعهده، فقيل إنه أسلم فى عهد النبى(ص) - وقيل فى عهد أبى بكر الصديق أو فى خلافة عمر بن الخطاب، والرأى الأخير هو الأصح والأشهر.

«وقد سكن المدينة، وغزا الروم فى خلافة عمر، ثم تحول فى عهد عثمان بن عفان إلى الشام فسكنها، إلى أن مات بحمص فى عهد عثمان سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين، والأول هو الأكثر.

وقد كان عنده علم بكتب أهل الكتاب، والثقافة اليهودية، كما كان له حظ من الثقافة الإسلامية، ورواية الأحاديث[٢٩]

روى الأحاديث النبوية عن كثير من الصحابة والتابعين، وعلى سبيل المثال: السيدة عائشة (رضى الله عنها) وأبو هريرة، وعبدالله بن عباس وغيرهم. وشهد العلماء له بغزارة علمه ومكانته، خاصة فيما يتعلق بكتب أهل الكتاب.

فقد قال عنه أبو الدرداء: (إن عند ابن الحميرية لعلما كثيرا) وقال عنه معاوية: (إنه كان من أصدق هؤلاء الذين يحدثونه عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب)

وقد دفع ما كان ينقله كعب من أساطير واسرائيليات عن أهل الكتاب، دفع كثيرا من الرواة إلى الظن فى صدقه أو الثقة فى رواياته.

فقال ابن عباس: (بدل من قبله فوقع فى الكذب).

وقال الحافظ بن كثير عنه: (.. ولكن الشأن فى صحفه، أنها من الاسرائيليات التى غالبها مبدل، مصحف الحرف، مختلق..)[٣٠]

والحقيقة . .إنه (ما كان وضاعا يعتمد على الكذب ، وأن الاسرائيليات التى رواها أن كان من وقع فيها كذب وأباطيل ، فذلك يرجع إلى من نقل عنهم من أسلافه الذين حرفوا وبدلوا وإلى بعض كتب اليهود التى حشيت بالأكاذيب والخرافات ، وإما إلى خطئه فى التأويل . .

الهوامش

(١) د/ أحمد كمال زكي ـ الأساطير ـ المكتبة الثقافية (١٧٠) ص ٣.

(٢) د. صلاح عبد/ بين الأدب والعلم/ مطبعة المعرفة/ بلا تاريخ ص ٩.

(٣) السابق ص ٩.

(٤) السابق ص

(٥) السابق ص ١٠.

(٦) د. عبد الحميد يونس «الأسطورة والفن الشعبي» المركز الثقافي الجامعي، طبعة أولى فبراير ١٩٨٠ ص ١٦-١٧.

(٧) حسين محمد فهيم «أدب الرحلات» عالم المعرفة ١٣٨- يونيه ١٩٨٩ ص٨٦

(٨) د. محمد بن محمد أبو شهبه. الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ـ مجمع البحوث الاسلامية سنة ٨٤ ص ٢١.

(٩) د/ أحمد مرسي وآخرون ـ الفولكلور والاسرائيليات ـ دار المعارف سنة ٧٧ (ملاحظة على عنوان كتابه المترجم)

(١٠) نقلا عن الشيخ الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٦٥

(١١) فاروق خورشيد ـ في الأصول الأولى للرواية العربية ـ المكتبة الثقافية (٤٨٥) ص ٣٨، ٣٩ نقلا عن محمود ذهني ـ القصة في الأدب العربي القديم.

(١٢) المرجع السابق ص ٣٥ نقلا عن أحمد كمال زكي ـ الأساطير ـ المكتبة الثقافية (١٧٠) ص ٦٧.

(١٣) وهب بن منبه ـ كتاب التيجان في ملوك حمير ـ الذخائر (١٠) ـ الهيئة سنة ٩٦.

(١٤) حسين نصار ـ نشأة التدوين التاريخي عند العرب ص ٤٢.

(١٥) مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب التيجان من ملوك حمير لوهب بن منبه ـ الذخائر (١٠) ـ الهيئة سنة ٩٦.

(١٦) المرجع السابق ـ المقدمة ـ
(١٧) حسين نصار ـ نشأة التدوين التاريخى عند العرب ـ بلا تاريخ ـ النهضة المصرية ص ٤٠ .
(١٨) السابق ص (٤٨) .
(١٩) مقدمة كتاب التيجان لوهب بن منبه
(٢٠) حسين نصار / نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص ٣٩ .
(٢١) السابق ص ٤٧
(٢٢) السابق ص ٢٦
(٢٣) كتاب التيجان لوهب بن منبه ص ٣٢٥ .
(٢٤) السابق ص ٣٢٥ ، ٣٢٦
(٢٥) السابق ص ٣٢٦ .
(٢٦) حسين نصار / نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص ١٥
(٢٧) السابق ص : ٢١ ، ٢٢ .
(٢٨) السابق ص ٢٣ .
(٢٩) أبو شهبه / الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ١٤٣ .
(٣٠) السابق ص ١٤٧ .

الفصل الأول

الأسطورة فى الأدب العربى

أولا : فى الأدب الجاهلى:

مقدمة :

أطلق كثير من الباحثين على الفترة السابقة على الإسلام بمائة وخمسين عاما (العصر الجاهلى).

ومهما حاول الباحثون الإيغال فى زمن ما قبل العصر الجاهلى، والاعتماد على حقائق ملموسة بشأن هذه الفترة، ستعوزهم الأدلة والحجج.

والعرب - بائدة أو مستعربة - مروا بمراحل بدائية تغلبت الأسطورة فيها على عقائدهم، وحياتهم، وتفكيرهم. وانعكست هذه الأساطير فى تلك الشعائر أو الطقوس التى كانوا يمارسونها، والتى كشفت عنها آثارهم وما تركوه من معتقدات دينية توارثتها الأجيال المتعاقبة. كما كشف الأدب الجاهلى - شعرا ونثرا - عن بقايا وملامح هذه الأساطير خلال

تلك المراحل الزمنية التى مر بها الفكر العربى، والتى أشار المؤرخون إلى بعضها. إذ أنهم قسموا العرب إلى: «قبائل العرب البائدة، وتضم قبائل عديدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعمالقة. وإلى العرب العاربة وكانوا يقيمون فى الجهات الجنوبية من الجزيرة العربية وتضم دولة سبأ وحمير ومعين، والمصادر العربية تنسب هذه الطبقة إلى قحطان، وأشهر ولده يعرب أو الناطقين بالعربية..»(١)

وارتبطت أساطير العرب القدماء - كغيرهم من الشعوب - بمراحل تطورهم الحضارى، وقد ربط الباحثون هذه المراحل الحضارية بحياتهم واتجاههم الدينى.

ففى المرحلة الأولى ارتبطت الأساطير بطقوس العبادة - والثانية - وهى ما أطلق عليها بالمرحلة التعليلية - حاول الجاهليون - فى أساطيرهم - تفسير الظواهر الغامضة فى الحياة من حولهم. وتنبىء الأساطير الرمزية عن مرحلتهم الثالثة، وهى مرحلة أكثر تطورا لفكرهم، وفى المرحلة الأخيرة وهى التاريخية - ارتبطت الأساطير بحروب الجاهليين القبلية والقومية كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء(٢).

وإذا حاولنا إعادة هذا التقسيم - موغلين فى الزمن الأقدم

للجاهلية الأولى ـ فإننا نرى أن هذه الفترات الزمنية مرت بالمراحل الآتية:

المرحلة الأولى: وهى عبادة الأم ثم الأب، وهى مرحلة من الصعب تحديد بداياتها أو نظرياتها، ولكن بقيت شذرات متناثرة منها فى أساطيرهم السابقة على الإسلام مباشرة.

المرحلة الثانية: وهى مرحلة عبادة الطبيعة وظواهرها الكونية من شمس وقمر وكواكب وهى مرحلة أكثر تطورا من سابقتها فى تاريخ الميثولوجيا . ونجد مثل هذه العبادة فى شبه الجزيرة العربية شمالها وجنوبها. ومثال ذلك عبادة مملكة سبأ للشمس فى عهد بلقيس.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة عبادة الأصنام والأوثان والشجر وغير ذلك وهى الفترة التى امتدت إلى بداية ظهور الإسلام، فقد عبدوا الحيوان والطير والشجر والحجر بعد أن اعتقدوا بوجود أرواح خيرة وشريرة فيها ، وبعد أن أحسوا بضرورة أن يتقربوا منها، وأن يتقوا الشر الذى يخشونه عندها»(٣).

وهذا التقسيم ليس تعسفيا أو محددا تحديدا قاطعا، وإنما اختلطت هذه المراحل فى الفكر الجاهلى السابق على الاسلام مباشرة، وامتزجت الحقيقة بالخيال خاصة فى تاريخ تلك

الحروب القبلية وأخبارها والتى عرفت بالأيام، وفيما سجله علم التاريخ بتقسيمه، وما اتصل بهذا التاريخ من أساطير نابعة من الأخبار التى كان يرويها الرواة عن الجاهلية كوهب بن منبه، وكعب الأحبار عن العرب البائدة.

وتعدت عبادتهم إلى تقديس رؤسائهم وملوكهم وكهانهم، وجعلت لهم مكانة تليق بهم، وبقى هذا التقديس، وهذه العبادة بعد موتهم، وهذا كله كان يشكل عندهم مادة أسطورية تناقلوها عبر الأجيال حتى وصلت إلينا(٤).

أولا: الأسطورة فى النثر الجاهلى:

بقيت من المراحل السابقة شذرات مختلطة، ظلت تقاوم الزمن إلى أن وصلت إلى الجاهلية السابقة على الإسلام، وتبلورت عبادات الجاهليين فى الأصنام والأوثان وغيرها. وقد ارتبطت هذه الأصنام والأوثان بأساطير ذات أصول مروية، منها ما يرتبط بالأنسان كنائلة وإيساف، ومنها ما يرتبط بالحيوان كالغزال الذى عبدته بعض القبائل فى مرحلة سحيقة من الجاهلية الأولى، ولم يتبق من هذه العبادات إلا بقايا أساطير تداولتها بعض القبائل. ومنها ما يرتبط بالظواهر الكونية :

كالشمس ، والقمر ، والزهرة ، وغيرها من الكواكب والنجوم كاللات والعزى ، ومناة .

ويبدو أن الفكر الجاهلي مر بمرحلة من النضج أشارت إليها تلك الأساطير الرمزية التي تروى للحكمة والموعظة في أمثالهم المدونة .

* ومثال الأساطير المرتبطة بالأصنام والإنسان :

= أسطورة نائلة وإيساف

= الأساطير التي دارت حول اللات والعزى ومناة وهبل ، وغيرها .

وتروى الأسطورة الأولى أن نائلة وإيساف ارتكبا الفاحشة في الحرم فمسخا حجران ووضعا عند الكعبة يتعظ بهما الناس ، فلما طال مكثهما ، وعبدت الأصنام ، عبدا معها وكان أحدهما يلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان يلصق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما(٥) .

أما ما يرتبط بالحيوان كالغزال والثور وغيرهما ، فقد كان كل منهما موضع تقديس منذ القدم ، إذ كان الغزال ـ بخاصة ـ من المعبودات العربية القديمة ، وكان رمزاً للشمس ، وقد بلغ من

تقديس الجاهليين للغزال، أنهم إذا وجدوا غزالا ميتا غطوه، وكفنوه، ودفنوه، وكانت القبيلة تحزن عليه ستة أيام[٦].. بل إن قاتله كان يعاقب عقابا إلى حد الموت. وتشهد الأسطورة على ذلك بقولها: «إن قبيلتين من العرب نزلوا بمكة، فأُهلكوا في شأن ظبي قتله رجل منهم إذ أنهم بعد قتله أقبلت حية من الجبل، فجعلت تنفخ عليهم من جوفها أمثال الرماح من النار، فجعلوا يحترقون حتى هلكوا جميعا..[٧]»

أما الأساطير المرتبطة بالظواهر الكونية: كالشمس، والقمر، والزهرة، فقد نبعت ـ في اعتقادنا ـ من عبادة الجاهليين لها في مرحلة سحيقة من الجاهلية الأولى! ثم اتخذت الأصنام: كاللات، والعزى، ومناة وغيرها كرموز لهذه المقدسات الكونية. بل إن عرب الجاهلية الأولى كانوا يقدمون الضحايا لهذه المقدسات الكونية. الابناء أو الأسرى (التضحية بالبشر). فقد ورد عن العرب الجاهليين أنهم «كانوا يكرمون كوكب الصباح (العربي) ويخرون له ساجدين، ويضحون له أجود أسراهم الذين أخذوهم في الغزوات، وهم يفضلون لذلك الشباب إذا كانوا في عز الشباب، وصبيحي الوجوه، ويعدون لهذه الغاية مذبحا من الحجارة والصخور التي يكومونها،

وينتظرون الفجر حتى إذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحية بالسيوف، ويشربون دمها..[٨].

وهذه المرحلة التى كانت تقدم فيها الضحايا البشرية إنما كان يتمثل فيها الشكل الدينى المعروف بـ (عبادة الكواكب) التى تتألف من ثالوث سماوى هو القمر والشمس والزهرة. هذا الثالوث الذى كان يمثل صلة عائلية بين القمر الأب، والشمس الأم، والزهرة الابن أو الابنة.

يقول د. ابراهيم عبد الرحمن عن هذا الثالث و«.. ومن ثم فإننا عاجزون عن فهم حقيقة هذه الصلة العائلية بين هذا الثالوث على النحو الذى كان يتصوره الجاهليون.. وقد ورد فى اللغة العربية لفظ (اقتران) فى كتب النجوم والأنواء، ويطلق عادة على (اقتران) الشمس والقمر، واقتران الكواكب الأخرى بعضها ببعض، مما يوحى بأن وراء هذا الثالوث الوثنى أسطورة دينية معينة ضاعت فيما ضاع من أخبار الجاهليين..»[٩]

وفى الجاهلية المتأخرة السابقة على الاسلام مباشرة أطلقت اللات والعزى ومناة كمسميات لأصنام بعينها كانت قريش تعبدها وتقدم لها الأضحيات، ونحن نقف عند رواية أو أسطورة

دارت حول (العزى) فى خبر فتح مكة، تقول الأسطورة: «كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات [١٠] ببطن نخلة[١١] فلما فتح النبى (صلى الله عليه وسلم) مكة بعث خالد بن الوليد، فقال له: ايت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها، فعضدها، فلما جاء إليه عليه السلام قال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دبية السلمى، وكان من سادتها... ثم ضربها.. أى خالد - ففلق رأسها، فإذا هى حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن. ثم أتى النبى (صلى الله عليه وسلم) فأخبره.

فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب، أما إنها لن تعبد بعد اليوم»[١٢] وقد أورد الكلبى صاحب كتاب الأصنام رواية أخرى بهامشه منقولة عن المقريزى فى كتابه (إمتاع الأسماع) وقد فعلها المقريزى عن الواقدى، تقول الرواية أو الأسطورة: «إن خالد بن الوليد هدم العزى لخمس بقين من رمضان عام ثمانية من الهجرة، وأنه لما رجع إليها بأمر رسول الله(ص) ليهدمها جرد سيفه فإذا امرأة سوداء عريانه، ناشرة شعر الرأس... قال

خالد: وأخذنى اقشعرار فى ظهرى قال: فضربها بالسيف فجزلها اثنتين»[١٣]

والجانب الأسطورى ـ فى اعتقادنا ـ فى تلك الرواية هو تلك الشيطانة التى كانت على هيئة امرأة حبشية، نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها، والتى خرجت من بطن النخلة الثالثة.. فرواية هذا الجزء، واختلاف صيغه، وما يوحيه من تصور مختلق، يدل على أنه جزء مزيد أو مضاف للرواية الحقيقية للخبر خلال انتقاله عبر الأزمان.

ثانيا: الأسطورة فى الشعر الجاهلى:

حفل الشعر الجاهلى ـ كالنثر ـ بأساطير لها جذور سحيقة فى أعماق الزمن، وهى بقايا متداخلة لعهود بائدة يصعب على أى باحث تحديد بدايتها أو نهايتها.

ويهمنا من هذه الأساطير ما دار منها حول الغيبيات أو ما وراء الطبيعة، كالملائكة والجن. فقد «عبدت قلة من العرب الملائكة والجن، وقد حكى القرآن الكريم حالهم»: «ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون

الجن وأكثرهم بهم مؤمنون» قال أمية بن أبى الصلت يتبرأ من عبادة الجن:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم

وأنت الهى ربنا ورجائيا»[١٤]

وقد علل بعض الباحثين إيمان الجاهلى بوجود الجن بالبيئة الصحراوية بجبالها ووهادها مما دفع الجاهلى إلى تسلط الأوهام عليه «وتتجسم المخاوف والأحلام، فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن، وخالطوها، وصادقوها، وخاصموها، ونسلوا منها»[١٥] وقد دارت معظم أساطير الجاهلية حول نوعين من الجن هما الغيلان والسعالى، وأطلقوا الغول على كل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب من الصور والثياب ذكرا كان أو أنثى، إلا أن الأكثر على أنه أنثى، والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار، قالوا: وإنما هندامها على العبث، أو لعلها تفزع انسانا فيتغير عقله..[١٦]

وسميت الغول - كذلك - لأنها: «تتغول لهم أى تتلون وتتشكل بصور شتى أو لأنها تغتالهم..»[١٧]

وقد وصف بعض شعراء الجاهلية الغول، فقد كانت - على حد زعمهم - تشبه الإنسان ولكن رجليها رجلا حمار أو عنز.

وكانوا يصيحون بها إذا ما رأوها :

يا رجل عنز نهقى نهيقا

لن تنزلى السبيل والطريقا(١٨)

كما كانت صغيرة الرأس ، مشقوقة اللسان ، يشبه لسانها لسان الكلب ، مشوهة الساق ، تلبس ثوبا من جلود باليه . . هكذا وصفها الشاعر الجاهلى تأبط شرا فى قوله :

إذا عينان فى رأس دقيق

كرأس الهر مشقوق اللسان

وساق مخدج ولسان كلب

وثوب من عباء وشنأن(١٩)

ويدعون أن الجن قادرة على التشكل فى أية صورة تشاء ، فقد تتشكل فى صورة حمار أو حية أو غير ذلك ، فقد رويت أسطورة عن الشاعر عبيد بن الأبرص تقول إنه سافر فى ركب من بنى أسد ، فبينما هم يسيرون إذا هم بشجاع يتمعك على الرمضاء ، فاتحا فاه من العطش ، وكانت مع عبيد فضله من ماء ، فنزل فسقى الشجاع حتى روى واستنعش ، فانساب فى الرمل . فلما كان الليل ونام القوم ندت رواحلهم فقام كل واحد يطلب راحلته ، فتفرقوا ـ بينا عبيد كذلك ، وقد أيقن بالهلكة

والموت فإذا هو بهاتف يهتف به :

يا أيها السارى المضل مذهبه

دونك هذا البكر منا فاركبه

وبكرك الشارد أيضا فاجنبه

حتى إذا الليل تجـنى غيهبه

فحط عنه رحله وسيبه

فقال له عبيد : يا هذا المخاطب ، نشدتك الله ألا أخبرتنى من أنت ؟

فأنشأ يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضا

فى قفرة بين أحجار وأعقاد[٢٠]

فجدت بالماء لما ضن حـامله

وزدت فيه ، ولم تبخل بإيحاد

الخير يبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فركب البكر ، و بكره ، فبلغ أهله مع الصبح ، فنزل عنه ، وحل رحله وخلاه فغاب عن عينه ، ثم جاء أخوانه الذين سلموا بعد ثلاث ليال »[٢١]

وقيل إن الحية واليربوع والقنفذ والغزال والأرنب من مطايا الجن يحبون ركوبها والانتقال عليها، قال شاعر فى قنفذ رآه ليلا إنه «يعجب من اختيار الجن إياه مركبا ويدهش من تركهم الخيل والأسود والنوق:

فما يعجب الجنان منك ـ عدمتهم

. وفى الأسد أفراس لهم ونجائب

أيسرج يربوع، ويلجم قنفذ؟! لقد أعوزتهم ـ ما علمت ـ النجائب[٢٢]

وقد راجت أساطير تروى تبادل العلاقة بين الإنسان والجن، وقامت هذه العلاقة على أساس تبادل الحب والعشق بينهما إلى حد الزواج والإنجاب منها.

فقد زعموا أن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين، ولذا سموا بنى السعلاة، وأن تأبط شرا لقى الغول، فراودها عن نفسها، فأبت، فقتلها[٢٣] وقد تباهى عبيد بن أيوب العنبرى فى حديثه لحبيبته بأنه ألف الغيلان والسعالى فى قوله:

وساخرة منى ولو أن عينها

رأت ما ألاقيه من الهول جنت

أبيت وسعلاة وغول بقفرة

إذا الليل وارى الجن فيه أرنت[٢٤]

وعلاقة الانسان بالجن ومؤاخاتهم والزواج منهم من الموتيفات التى راجت فى الملاحم الشعبية وألف ليلة وليلة ومثال ذلك ملحمة سيف بن ذى يزن.

وتزعم العامة أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت فإن أعاد الضارب ضربة أخرى قبل أن تموت فإنها لا تموت[٢٥].

* شيوع معتقدات راسخة فى صحبة الجن للشعراء، وأن لكل شاعر جنى يلهمه الشعر ويجريه على لسانه، وقد تخيل العرب أن وادى (عبقر) هو موطن الجن ومسكنه، ولذلك أطلقوا على كل شاعر مبرز ذى شهرة واسعة صفة العبقرية نسبة إلى وادى (عبقر) فإذا ما برز شاعر فى قبيلته وشاعت أخباره وأشعاره على كل لسان، اعتقدوا أن له شيطانا ملهما... قال الراجز:

إنى وإن كنت صغير السن

وكان فى العين نبو عنى

فإن شيطانى أمير الجن

يذهب بى فى الشعر كل فن[٢٦]

وقد بلغ بهم الوهم حدا جعلهم يقرنون بين اسم الشاعر واسم شيطانه. فشيطان الأعشى مسحل، وشيطان المخبل السعدى عمرو، وشيطان عبيد بن الأبرص هبيد، وشيطان امرىء القيس لافظ بن لاحظ، وشيطان النابغة الدبياني هاذر[٢٧].

بل إن الاخباريين أجروا على لسان هؤلاء الشياطين شعرا لهم، فهبيد شيطان كل من عبيد بن الأبرص وبشير بن أبي خازم ينسبون إليه قوله:

أنا بان الصلادم أدعى الهبيد

حبوت القوافي ترقى أسد

منحناهم الشعر عن قدرة

فهل تشكر اليوم هذا معد؟

وقد اعترف الأعشى أن شيطانه مسحلا يوحى إليه، ولولاه ما شعر فيقول:

وما كنت أقول ولكن حسبتني

إذا مسحل يسدى إلى القول أعلق

شركان فيما بيننا من هوادة

صفيان : انسي وجن موفق

يقول فلا أعيا بقول يقـــوله

كفاني لا وعى ولاهو أخـرق[٢٨]

ثانيا: فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى:

ولم يسلم كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى من تسرب القصص والروايات التى لعب الخيال فيها دورا كبيرا فى تنسيقها، وسبكها، وسرد أخبارها، واختيار أشخاصها وأحداثها، وذلك على يد الرواة والاخباريين.

لذلك حرص الرواة الذين اهتم الأغانى بذكر أسمائهم وتسلسلها قبل إيراد الخبر المروى، حرصوا على صياغة الخبر صياغة قصصية يراعى فيها السرد المشوق والحوار المتقن، والتركيز على ذكر ما يتصل بالشخصية المحورية من أحداث ومواقف تضىء وتكشف عن جوانب مهمة فى هذه الشخصية.

ويحرص الأصفهانى على إيراد الروايات والأحاديث النبوية والقصائد التى تغنى بها مطربو عصر هذه الشخصية ، ليضفى على روايته وأحداثه مصداقية تقربها من الحقيقة أو الواقع.

ومن الملاحظ على ما أورده الأغانى من روايات قصصية أنها كلما أوغلت أحداثها فى القدم، وتباعدت فى الزمن، كلما

وجدت الأساطير منفذا تتغافل منه إلى الأحداث وتسلسلها، والشخصيات ومكانتها، خاصة التاريخية منها، ومن ثم اتسمت هذه الأخبار بالمبالغات والأعاجيب التى تقربها من الخيال، وتبعدها عن الواقع.

ويحرص الأصفهانى على إيراد الخبر المروى فى قالب فنى يشكله الأصفهانى حسب تنوعه، ومن ثم فإن هذا القالب يتنوع مع الحفاظ على الخطوط الأصلية أو الهيكل الأساسى للأحداث، ومن خلال هذا التنوع فى القوالب الفنية تتسرب المبالغات التى تقترب من الأساطير.

ومن هذه القوالب الفنية للروايات القصصية:

• الأحلام:

وللأحلام دورها - كقوالب فنية - فى تشكيل الروايات القصصية ذات الملامح الأسطورية فى الأخبار التاريخية والأدبية.

ومن تلك الأخبار ما دار لوالبة من الحباب الشاعر العباسى واستاذ أبى نواس تقول الرواية على لسان والبة: وحدثنى أنه كان ليلة نائما وأبو نواس غلامه إلى جانبه نائم، إذا أتاه آت فى

منامه فقال له :

أتدرى من هذا النائم إلى جانبك؟ قال : لا ، قال : هذا أشعر منك وأشعر من الجن والأنس، أما والله لأفتنن بشعره الثقلين ولأغرين به أهل المشرق والمغرب، قال: فعلمت أنه ابليس، فقلت له: فما عندك؟ قال : عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى، ولو أمرنى أن أسجد له ألفا لسجدت»(٢٩)

ويورد ابن المعتز فى طبقات الشعراء رواية أخرى لهذا الخبر فى قالب فنى آخر . ولا يخفى أن الخبر برمته من وضع الرواة الذين اختلفوا وبالغوا فى تقدير مكانة أبى نواس الشعرية والتنبؤ بتفوقه قبل شهرته، كما لا تخفى الملامح الأسطورية فى سرده.

* ومن الشخصيات الأدبية التى أوردها الأصفهانى ودارت حولها ملامح أسطورية (أصيحة بن الجلاح) و (عمرو بن عدى) ، فقد عاصر الأول حكم تبع بن حسان الحميرى اليمنى كما عاصر الثانى جذيمة الأبرش، وهى من شخصيات العصر الجاهلى والتى تسربت إلى السير الشعبية.

وتعكس الروايات القصصية التى دارت حول الشخصيات السابقة مدى اعتقاد رواتها فى اختلاط الجن بالانس فى الشعر والحياة.

ففى الرواية الأولى التى دارت أحداثها بين أصيحة بن الجلاح وتبع أو (أبو كرت بن حسان ابن تبع) بن سعد الحميرى، ما يكشف لنا عن الاعتقاد السابق فى اختلاط الجن بالانس.

تقول الرواية:

« . . أقبل تبع الأخبر وهو أبو كرب بن حسان (بن تبع) بن سعد الحميرى من اليمن سائرا يريد المشرق، كما كانت التبابعة تفعل، فمر بالمدينة فخلف بها ابنا له، ومضى حتى قدم الشام، ثم سار من الشام حتى قدم العراق، فنزل بالمشقر، فقتل ابنه غيلة بالمدينة، فبلغه وهو بالمشقر مقتل ابنه، فكر راجعا إلى المدينة . . »[٣٠]

« . . ثم أقبل حتى دخل المدينة، وهو مجمع على اخرابها، وقطع نخلها، واستئصال أهلها وسبى الذرية . . »[٣١]

وقدم أشراف المدينة ـ بعد أن استدعاهم تبع ـ وفيهم أصيحة بن الجلاح، وقد أحس بغدر تبع فقال لقومه: والله ما دعاكم لخير. ويبدو أن قوم أصيح كانوا يتوسمون فيه الرأى الحكيم والتوقعات الصائبة

والإحساس الدقيق . . فشاركوه هذا الإحساس بتوقع غدر تبع بهم. ولأنهم كانوا يعتقدون « . . أن مع أصيحة تابعا من الجن

يعلمه الخبر لكثرة صوابه»(٣٢).

ويهمنا من الخبر السابق ذلك التابع من الجن الذى يصاحبه فى غدواته وروحاته، وحله وترحاله ليوجهه للصواب الدائم والرأى السديد وفى ذلك دلالة على أن الشعوب إذا آمنت بقادتها وزعمائها، فى العهود القديمة - قدستهم أو آلهتهم، أو نسبوا إليهم الأعمال الخارقة نتيجة اتصالهم بعالم الجن والشياطين.

أما الاعتقاد فى مشاركة الانس للجن حياتهم وانتقال الانس إلى عالمهم المجهول فتكشف عنه رواية عمرو بن عدى مع جذيمة الابرشى.

يقول الأصفهانى فى خبر عن جذيمة الأبرشي ورقاش وعمرو بن عدى والزباد :

إن جذيمة الأبرشي - وأصله من الأزد - «.. كان أول من ملك قضاعة بالحيرة، وأول من جذا النعال، وأدلج من الملوك، ورفع له الشمع، قال يوما لجلسائه : ذكر لى عن غلام من لخم مقيم فى أخواله من إياد له ظرف ولب فلو بعثت إليه يكون فى ندمائى، ووليته كأسى والقيام بمجلسى كان الرأى..(٣٣)

ووقع الاختيار على (عدى) الذى عشقته (رقاشي ابنه مالك

أخت جذيمة فلم تزل تراسله حتى اتصل بينهما»[٣٤]

وتحايلت رقاشي وعدى فسقيا جذيمة الخمر وأقنعاه بزواجهما فلما استرد وعيه قتل عديا بعد أن حملت رقاشي منه، وولدت له عمرا ولما شب وصار غلاما جميلا أحبه خاله جذيمة، وقرب من قلبه وحل منه بكل مكان «.. ثم إن الجن استطارته، فلم يزل جذيمة يرسل في الآفاق في طلبه، فلم يسمع له بخبر، فكف عنه»[٣٥]

وشاع اعتقاد ـ تفسيرا لاختفاء عمرو ـ إن الجن أخفته، ولكي يؤكد الرواة في الأغاني على هذا الاعتقاد فنسجوا بقية القصة الأسطورية برواية رجلين يطمعان في منادمة الملك أحدهما يسمى عقيلا والآخر مالكا، إذ أنهما سافرا ومعهما هدية للملك، فنزلا على ماء، ومعهما قينة يقال لها أم عمرو فنصبت قدرا وأصلحت طعاما، فبينما هما يأكلان إذا أقبل: «.. رجل أشعث أغبر قد طالت أظافره، وساءت حاله، حتى جلس مزمجر الكلب فمد يده فناولته شيئا فأكله، ثم مد يده، فقالت: إن يعط العبد كراعا يبتغ ذراعا، فأرسلها مثلا.»[٣٦]

ويفاجأ الرجلان والقينة بأن ذلك الأشعث الأغبر ما هو إلاعمرو بن عدى الذى عجز الملك من العثور عليه ودارت

الروايات على أنه نزيل الجن وأنه كان مختفيا عندهم، وقد دلل الرواة على هذا الاعتقاد بمظهر عدى حين وجوده. وقام الرجلان « .. فلثماه وغسلا رأسه، وقلما أظافره وقصرا من لمته، وألبساه من طرائف ثيابهما.. »[٣٧].

ويلتئم شمل الملك وأخته بعمرو بن عدى، ويجعل جذيمة الرجلين نديميه بقية عمرهما، وضربت الشعراء بهما الأمثال. وعلاقة الجن بالأنس - خاصة الشعراء - تداولتها كتب الأدب والتاريخ في العصر الجاهلي وعاشت في الوجدان الشعبي.

الهوامش

(١) د. مصطفى الشورى / الشعر الجاهلى : تفسير اسطورى - دار المعارف - طبعة أولى سنة ٨٦ ص ٨١.

(٢) د. ابراهيم عبد الرحمن / الشعر الجاهلى : قضايا ه الفنية والموضوعية / مكتبة الشباب سنة ٧٩ ص ٥٠.

(٣)مصطفى الشورى - المرجع السابق ص ٨٦.

(٤) المرجع السابق ص ٩٠.

(٥) الكلبى : كتاب الأصنام / تحقيق أحمد زكى / الدار القومية للطباعة والنشر / بلا تاريخ / ص ٢٩.

(٦) ، (٧) د. مصطفى الشورى / الشعر الجاهلى : تفسير اسطورى - دار المعارف - طبعة أولى سنة ٨٦ ، ٩٩ ، ١٠٠.

(٨) د. مصطفى الشورى / الشعر الجاهلى : تفسير أسطورى / دار المعارف سنة ٨٦ ، ص ٩٤ نقلا عن النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية - لويس شيخو - بيروت سنة ١٩١٢ القسم الأول ١٦.

(٩) د. ابراهيم عبدالرحمن / بين القديم والجديد / مكتبة الشباب سنة ١٩٨٧ الهامش ص ٧٤.

(١٠) سَمُرات : شجر (السَّمُر) بضم الميم : شجر (القاموس المحيط)

(١١) بطن نخلة : منطقة.

(١٢) الكلبى / الأصنام / ص : ٢٥ ، ٢٦

(١٣) المرجع السابق هامش ص ٢٦.

(١٤) د. أحمد الحوفى - الحياة العربية من الشعر الجاهلى - طبعة خامسة - نهضة مصر - بلا تاريخ ديوان أمية ص ٣٨ - المرجع السابق ص ٤٢٨

(١٥) المرجع السابق ص ٤٥٩.

(١٦) المرجع السابق نقلا عن (الحيوان) للجاحظ ج ٦ ص ٤٨ .
(١٧) المرجع السابق ص ٤٦٣ .
(١٨) المرجع السابق ص ٤٦٠ .
(١٩) المرجع السابق ص ٤٦١ .
(٢٠) أعقاد : كثبان رمل .
(٢١) المرجع السابق نقلا عن الأغانى - طبعة ١٩ ص ٨٩
(٢٢) المرجع السابق ص ٤٦٧ .
(٢٣) المرجع السابق ص ٤٧١ .
(٢٤) المرجع السابق ص ٤٧٠ .
(٢٥) السابق ص ٤٧٢ .
(٢٦) السابق ص ٤٧٦ .
(٢٧) السابق ص ٤٧٧ .
(٢٨) السابق ص ٤٧٩ .
(٢٩) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى / تحقيق عبد الستار أحمد فراج جـ١٨ دار الثقافة بيروت سنة ٥٩ ص ٤٨ .
(٣٠) الأصفهانى .. الأغانى ج ١٥ ص ٣٣ .
(٣١) السابق ص ٣٣ .
(٣٢) السابق ص ٣٤ .
(٣٣) السابق ص ٢٥٠ .
(٣٤) السابق ص ٢٥٠ .
(٣٥) السابق ص ٢٥١ .
(٣٦) السابق ص ٢٥١ .
(٣٧) السابق ص ٢٥٢ .

الفصل الثانى

الأسطورة والاسرائيليات في التراث الدينى

أولا : فى قصص الأنبياء:

حفل القرآن الكريم بقصص الأنبياء والرسل والصالحين كأهل الكهف، وغيرهم. وما جاء به القرآن الكريم من أخبار هؤلاء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما قدمه من قضايا ومن قصص الشعوب البائدة ـ كعاد وثمود ـ لا يتطرق الشك إليه.

وليس الهدف من ورود هذه القصص مجرد الاخبار أو رواية القصص عن تلك الشعوب، وإنما استخلاص العبرة والموعظة للإهتداء والإقتداء.

ومنذ أن اتصلت العقلية العربية ـ فى العصرين الأموى ثم العباسى بشعوب أخرى غير عربية كالفرس ، واليونان ، وغيرهم، ازدهرت حركة الترجمة والتجميع ، وعرف عن العرب أخبارهم وأيامهم، والتصقت بها ما رواه وهب بن منبه

وكعب الأحبار، وغيرهما من قصص وأخبار.

ونتاج ما سبق كله، تسرب موجات من المبالغات تجاوزت حد المعقول فى أخبار العرب، وقصصهم، وتاريخهم، وعرفت بالإسرائيليات المليئة بالأساطير.

وقد اتهم بعض رواة الأخبار - ذوى الإتجاه الأسطورى - بالوضع والكذب فيما روى، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - محمد بن السائب.

وقد سيطر الإتجاه الأسطورى على الفكر العربى فى بعض مراحله، وانتقل إلى كثير من المؤلفات. فإذا أخذنا نموذجين لهذا الإتجاه، وهما كتابا تفسير القرطبى، وقصص الأنبياء المسمى بالعرائس للعلامة ابن اسحق أحمد بن محمد ابراهيم الثعلبى، يتضح لنا هذا الإتجاه الأسطورى المسيطر عليهما.

الجوانب الأسطورية فى قصص الأنبياء للثعلبى:

اتخذ الثعلبى فى كتابه منهجا يعتمد على:

١- إيراد أسماء الرواة والإخباريين الذين نقل عنهم دونما اهتمام أو تحقيق لصدق) وكذب ما يروونه.

٢- ذكر أسماء الرواة دونما اهتمام بالتسلسل والغض - كثيرا

ـ لأسماء الرواة والإخباريين.

٣ـ عدم مطابقة الخبر المروى ـ أحيانا ـ للآيات الكريمة أو الأحاديث النبوية التى يستشهد بها، خاصة فى التفاصيل.

٤ـ اختلاف أساليب الروايات ، والحوار بين الشخصيات التى تدور الأحداث حولها فإذا تعرضنا للأخبار أو الروايات ذات الاتجاه الأسطورى ، نجد منها :

أ ـ بداية خلق الأرض:

* قبل أن نتعرض للأرض وما يتصل بها من بداية خلقها ، وكيفية تكوين السموات والجبال وغير ذلك ، نود أن نشير إلى أن ما لا يتطابق مع ما جاء فى القرآن والسنة فهو موضع شك ، يحتاج إلى يقين بالبينة أو البرهان العقلى . وليس أمامنا إلا أن نورد الخبر كما جاء فى كتب التراث دونما نقد أو تمحيص . ومن ذلك بداية خلق الأرض بما فيها ، فقد «روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه زبد ودخان وبخار ، وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك

اليـوم يرعـد إلى يوم القـيـامـة، وخلق الله من ذلك الدخـان السـمـاء، فـذلك قـوله تعـالى (ثم اسـتـوى إلى السـمـاء وهي دخان)[1] أي قصـد وعمـد إلى خلق السـمـاء وهي بخار، وخلق من ذلك الزبد الأرض»[2].

وحـاشى لله أن نـعـتـرض على مـا جـاء فى كـتـاب الله، فـهـو لا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه، ولكن وجـه الاعـتـراض على مـا ورد في قـول الرواة من تفـاصـيـل أو وصـف أو حـوار على لسـان الأرض أو الجبال أو غيـر ذلك.

*واختلف المفسرون حول تفسير افتتاحيات بعض السور القرآنيـة مثل: ألر، طسم، كـهـيعص، الم. .إلخ ومنهـا مـا جاء في قوله تعالى: (ق والقرآن المجيد)[4] فقالوا: «أول مـا خلق الله الأرضَ عـجـت وقـالت: يـارب تجـعـل على بنى آدم يـعـمـلون على الخطايا، ويلقون على الخبـائث فـاضطربت فـأرساهـا الله تعـالى بـالجـبـال فـأقـرهـا، وخلق الله تعـالى جـبـلا عظيـمـا من زبرجـدة خـضـــراء (من الملاحظ تكرار اللون الأخـضـــر فى كــثـيـــر من المرويات) خـضـرة السـمـاء يقال له جبل قاف، فأحـاط بها كلها وهو الذى أقسم الله به، فقال: (ق والقرآن المجيد)[5]

ونرى ـ مـا سـبـق ـ وجـه اعـتـراض الأرض على خلق بنـى آدم

فوقها . . . فهل يعقل أن يعترض مخلوق على إرادة الخالق فى حوار مختلق ؟ !

وخلق الجبال لإرساء الأرض وثباتها مذكور فى كتاب الله - سبحانه وتعالى - ولكن هل أشارت الايات الكريمة على أن (ق) هو جبل له تلك الأوصاف الواردة فى أقوال الرواة ، وأنه مخلوق من زبرجدة خضراء ؟ !

* ويصف الثعلبى طبقات الأرض السبعة دونما استشهاد بآية كريمة أو حديث شريف تؤيد ما أورده من أوصاف طبقاتها . ومثال ذلك ما قاله عن الأرض الخامسة ، ففيها «حيات لكل منها ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب منها ثلثمائة وستون فقار ، فى كل فقار ثلثمائة وستون فرقا من السم ، كل فرق منها ثلثمائة قلة لو وضعت قلة منه على الأرض لمات أهل الدنيا من نتنه وفيها أيضا حيات لكل منها ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب منها كالنحلة الطويلة وفى أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل فى الأرض لهدته حتى يعود رميما ، وأنها لتلقى الكافر فتسمه فتقطع مفاصله . . »(٦)

والله قادر على كل شىء فى إيجاد مخلوقاته بالكيفية التى

يريدها ولكن مثل هذه الضخامة لتلك الحيات قد توجد فى جهنم لا فى الأرض الخامسة .

ب- حول خلق آدم عليه السلام:

تسللت أساطير كثيرة إلى قصص الأنبياء ، روى وهب بن منبه بعضها أو فى كعب الأحبار أو ابن عباس أو غيرهم .

ويستشهد الثعلبى بآيات قرآنية على ما ترويه هؤلاء حتى ولو لم تتطابق هذه الآيات مع ما يروى . ومن ذلك كيفية خلق آدم - عليه السلام - وبداية تكوينه وكمال خلقه ، إذ بعد أن أكتمل خلق آدم عليه السلام جسدا بلا روح «أراد الله أن ينفخ فى ادم - عليه السلام - الروح ، وأمرها أن تدخل فيه ، فقالت الروح مدخل بعيد القعر ، مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية ، فقالت مثل ذلك ، وكذلك ثالثة مصاد إلى أن قال فى الرابعة ادخلى كرها ، واخرجى كرها . فلما أمرها الله - تعالى - بذلك دخلت فى فيه ، فأول ما نفخ فيه الروح دخلت من دماغه ، فاستدارت فيه مقداو مائتى عام ، ثم نزلت فى عينيه . . ثم نزلت فى خياشيمه ، فعطس ، فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه ، فلقنه الله - تعالى - أن قال الحمد لله رب العالمين ،

فكان ذلك أول ما جرى على لسانه، فأجابه ربه ـ عز وجل ـ فقال يرحمك ربك يا آدم، للرحمة خلقتك. قال تعالى: سبقت رحمتي غضبي. ثم نزلت الروح إلى صدره فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه، وذلك قوله تعالى: (وكان الانسان عجولا) وقوله تعالى: (خلق الانسان من عجل) ..إلخ[٧]

ونلاحظ على الخبر المروى ما يأتي:

١ـ إن الثعلبي ذكر الخبر منسوبا إلى العلماء، لكنه لم يحدد لنا أسماءهم.

٢ـ إن تكرار الأمر من الله للروح بدخولها جوف آدم، والحوار الدائر بينهما يتعارض مع قوله تعالى: (ونفخنا فيه من روحنا) ثم إن الحوار يدل على معصية الروح، فكيف يتفق هذا عقلا ومنطقا؟!

٣ـ عند وصول الروح إلى صدر آدم، ومحاولته القيام، هل هو دليل قاطع، وتطابق تام مع قوله تعالى (وكان الانسان عجولا)؟ وفي اعتقادنا أن صفة العجلة صفة مركبة في طبيعة الانسان وتكوينه، ولا ارتباط لوجودها بمراحل تكوين آدم عليه السلام وطبيعته.

ولكي تكتمل الصورة التي تخيلها الرواة فصلوا وبالغوا في

تصوريهم لمراسم تكريم آدم عليه السلام بعد خلقه، وتحريك الروح له... ألبسه الله من لباس الجنة «ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة، وقال لهم: طوفوا به في سمواتي ليرى عجائبها وما فيها فيزداد يقينا، فقالت الملائكة: لبيك ربنا سمعنا وأطعنا فحملته الملائكة على أعناقها، وطافت به السموات مقدار مائة عام حتى وقف على كل شيء معه، ومن آياتها وعجائبها، ثم خلق الله فرسان المسك الأذفر يقال له الميمون له جناحان من الدر والجواهر، فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل آخذ لجامه، وميكائيل عن يمينه، واسرافيل عن شماله، فطافوا به السموات كلها»[٨] ولنا على الخبر الملحوظات الآتية:

١- من أين أتى الرواة بهذا الحوار الدائر بين الملائكة ورب العزة عندخلق آدم؟ وما مصادرهم؟

٢- هذا التقدير الزمني المبالغ فيه، كطواف الملائكة بآدم في الجنة واستغراقه مائة عام كيف وأين عرف الرواة هذه التفاصيل؟! وكيف قدر الرواة مقدار هذا الزمن بدقة؟!

٣- وهذه الأوصاف التفصيلية للفرس الميمون الذي طاف به آدم في الجنة، ألا يذكرنا ببراق الرسول(ص)؟! فهو من مسك

أزفر وله جناحان من الدر والجوهر ويقوده الملائكة

٤ـ ومن أين استقى الرواة هذا التصوير الخرافي لهيئة آدم، وتكوينه الجسدي، فقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : «لما هبط آدم إلى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن ذروته أقرب من ذرى جبال الأرض إلى السماء، وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه إلى السماء، ويسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم، وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة، واشتكت إلى ربها فجعلت قامته ستين ذراعا، وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب..»(٩)

٥ـ ونتوقف عند أقوال ابن عباس حول عاملين لا يخلوان من مبالغات أسطورية هما : عامل القياس ، وعامل الزمن.

فالعامل الأول المتصل بالقياس فإنه يدور حول الطول الخرافي لآدم عليه السلام فرجله على جبل سرنديب، ورأسه في السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم ومن الطبيعي أن هذا الطول يجعل رأسه تمس السحاب ويدفعه إلى سماعه لدعاء الملائكة وتسبيحهم. ولاندري ـ على وجه اليقين العلمي ـ ممن استقى ابن عباس هذه المقاييس التي تفوقت على الطول الخرافي للعمالقة أو عوج ابن عنق وغيرهم من الشخصيات ذات الأوصاف الأسطورية.

أما العامل الثانى ، وهو عامل الزمن المتصل بآدم وحواء فقد قال ابن عباس عنهما «بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ولم يأكلا ، ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة». فهل تتفق هذه التقديرات الزمنية وطبيعة الأشياء ؟ ! خاصة وأن آدم وحواء تكونت فيهما كل طبائع البشر بعد أن لمست أقدامهما الأرض ؟ ! وهل يتفق امتناعهما عن الطعام والشراب لمدة أربعين سنة مع التكوين الطبيعى للانسان ؟ وإلى أى حد بلغت قدرتهما على تحمل هذا كله ؟ !

وإذا كنا قد توقفنا عن قصة آدم - عليه السلام - ذلك لأننا نقدمها - كنموذج - لغيرها من قصص الأنبياء المليئة بالتصوير الخيالى ، والحوار المنسق .

وهنا ... نقف - عاجزين - عن استخلاص الفيصل بين الحقيقة والخيال .

ثانيا: فى كتب التفسير:

لكتب التفسير ومؤلفيها منزلة جليلة ، وحرمة لها حدود مهابة ، يقف عندها الباحث حذرا ومدققا فى تناولها خوف الذلل ، أو الإنحراف عن جادة الصواب أو خوف المساس لما يثير

الريبة وعدم الاقتناع.

ونحن نتوخى الحذر الشديد حين نتناول الاخبار الدينية أو التفسيرية الواردة فى كتب التفسير ، فلا نورد إلا ما يحمل منها جانبا أو اتجاها يستنبط منه مبالغة أو خبرا يتسم بالأسطورية.

كما أننا نود الكشف - جهد المستطاع - عن مبالغات الرواة، وعن المواضع التى تدخل خيال القصاصين فيها ، خاصة فيما ألصقوه بالرسول - صلى الله عليه وسلم - من أحاديث تحتاج من الباحثين التيقن من صحتها : وخاصة فيما أوردته كتب التفسير من تفسيرات لآيات القرآن الكريم على لسان وهب بن منبه أو كعب الأحبار أو غيرهما من الرواة والأخباريين.

وقد تجرأ بعض الرواة القصاصين على اختلاق أحاديث منسوبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما نسبوا قولها على لسان أئمة أجلاء هم أبرياء مما نسب إليهم.

ومن ذلك ما رواه القرطبى فى تفسيره :

« .. صلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاص فقال :

حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، قالا : أنبأنا

عبدالرزاق، قال: أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب، وريشه مرجان» وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد.

فقال: أنت حدثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت به إلا هذه الساعة. قال: فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فقال: أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإن كان ولابد من الكذب فعلى غيرنا، فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم.

قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة فقال له يحيى: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا قال: فوضع أحمد كمه على وجهه وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزىء بهما..»(١٠) والخبر السابق الذى أورده القرطبى فى تفسيره له

مؤشرات خطيرة تكشف عن:

* وجود رواة قصاصين « . . يقفون في الأسواق والمساجد فيضعون على رسول الله(ص) أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها. فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد[11].

* تدخل هؤلاء الرواة القصاصون بخيالهم لاختلاق الاخبار المكذوبة ذات الطابع الاسطورى الذى اتضح فى ذلك الطائر العجيب الذى (منقاره من ذهب وريشه مرجان).

* وراء هذه الأخبار الأسطورية أهداف خبيثة يسعى رواتها إلى تحقيقها ومنها التشكيك فى المقدسات أو المسلمات الدينية وتسميم أفكار العامة.

* جرأة هؤلاء الرواة القصاصين على انتحال أحاديث ينسبونها إلى رسول الله (ص) وينسبون قولها ـ حينذاك ـ إلى أئمة أجلاء وعلماء كأحمد ان بحنبل ويحيى بن معين مازالا أحياء وفى وجودهما داخل المسجد.

ولم يختلق الرواة القصاصون الأحاديث وأسانيدها فقط، وإنما تعدى خيالهم إلى بعض تفسيراتهم لايات القرآن الكريم وقد برز هذا الجانب ـ وإن كان قليلا ـ فى تفسيرات ابن كثير والقرطبى والتى أبرزت جوانب معينة يغلب عليها الجانب

الأسطورى والمبالغة فيما يروى من أخبار أو روايات . ومن ذلك :

• المبالغة فى إيراد الأعداد وتقديرها :

١ـ تعرض وهب بن منبه لتقدير عدد العالمين عند تفسير قوله تعالى :

(رب العالمين) فقال :

« . . إن لله عز وجل ـ ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها »[١٢]

٢ـ وقال مقاتل : « العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم فى البر وأربعون ألف عالم فى البحر »[١٣]

٣ـ وفى سلسلة من أسانيد الرواة تنتهى بأبى العالية . يورد ابن كثير ـ فى تفسيره لقوله تعالى : (رب العالمين) :

« . . الانس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم ـ هو يشك ـ الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، فى كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته . . »[١٤]

* تفسير الظواهر الطبيعية تفسير أسطورى :

أثبت العلم الحديث الدوافع الحقيقية وراء الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد والمطر وغيرها، بل إن بين العلماء القدماء من توصل إلى ذلك ومنهم الفلاسفة فى قولهم: «.. الرعد صوت اصطكاك اجـــرام الســـحـــاب والبـــرق مما ينقـــدح من اصطكاكها»[١٥]

وقد اقترب بعض رواة الأحاديث كابن عباس من الدافع الحقيقى للرعد فقال: «الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت[١٦]» ويأتى التفسير الأسطورى المعتمد على حديث نبوى أشار إليه القرطبى وشكك فى صحته.

ففى رواية منسوبة للترمذى وابن عباس تقول:

«سألت اليهود النبى (ص) عن الرعد ما هو، قال:

ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله:

ويعتمد الرواة - والتى تنتهى أقوالهم بابن عباس - على ما جاء فى الحديث السابق فيتعدد الخبر بعبارات مختلفة تدور حول البرق المرتبط بالرعد فهو: (البرق مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب» أو هو (سوط من نور بيدالملك يزجر به السحاب».

وهو (ملك يتراءى)[١٧]

فإذا استعرضنا ما سبق لأننا لا نتشكك لحظة فى قدرة الله ومشيئته والايمان بالله وملائكته يوجههم حيث يشاء.

نقف مترددين حول اختلاف ابن عباس والرواة حول تفسير الرعد أو البرق، فهما (مخاريق من نار) أو (مخراق حديد) أو (سوط من نور) ويشاركنا القرطبى فى التردد والتشكك فى تعليقه على الحديث النبوى السابق بقوله : (وهذا مردود لا يصح به نقل.. والله اعلم)[١٨].

الهوامش

(١) سورة فصلت آية (١١)

(٢) ابن اسحق أحمد بن محمد ابراهيم الثعلبي / قصص الأنبياء المسمى بالعرائس - مكتبة الجمهورية العربية - بلا تاريخ ص ٣ .

(٤) سورة ق آية رقم (١)

(٥) المرجع السابق ص ٤ .

(٦) السابق ص ٤ .

(٧) المرجع السابق ص / ١٦-١٧

(٨) السابق ص ١٧ .

(٩) المرجع السابق ص ٢١ .

(١٠) أبو عبد الله أحمد الانصارى القرطبى / تفسير القرطبى / كتاب الشعب / دار الشعب ص ٦٩ .

(١١) المرجع السابق ص ٦٩ .

(١٢) المرجع السابق ص ١١١ .

(١٣) السابق ص ١١١ .

(١٤) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ جـ ١ - دار أحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩ ص ٢٣ .

(١٥) القرطبى ص ١٨٨ .

(١٦) القرطبى ص ١٨٨

(١٧) التفسيرات السابقة ص ١٨٨ بالقرطبى .

(١٨) القرطبى ص ١٨٨ .

الفصل الثالث

التاريخ بين الحقيقة والخيال

اشتهرت بعض الكتب التراثية بتناولها للأحداث التاريخية ، وشخصياتها البارزة منذ الخليقة إلى بداية ظهور الإسلام.

وإذا دققنا النظر والبحث فى هذه الكتب التراثية سيروعنا هذا الخلط والإمتزاج بين الحقائق التاريخية والخرافات ، وتسرب الخيال الشعبى إليها فى سرد بعض الأحداث فمالت إلى الأساطير والمبالغات اللامعقولة.

ومن هنا أصبح من الصعب إيجاد وسيلة لترجيح ماهو تاريخى يقينا على ما هو خرافى. فإذا أضفنا إلى ما سبق صعوبة الوصول والإحاطة بأنواع الكتابة التاريخية فيما قبل الاسلام.

وإلى ذلك أشار حسين نصار بقوله:

« .. وإذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية فى العصر الجاهلى لم نكد نظفر بشىء حتى البلدان المتحضرة التى كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها

مثل اليمن والحيرة، وغسان لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب من سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الاسلام، وحلق بهم الخيال في الأجواء حتى ما تستطيع أن تركن إلى حقيقة ما يقولون على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على ا لآثار الباقية في اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوب الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميري والخطوط الأخرى في بلاد العرب القديمة، والشيء الوحيد الذي نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية المودعة في أديار الحيرة وكنائسها، والتي أطلع عليها الكلبي فيما بعد وإن كنا لا نعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك..»[1]

نقول إذا أضفنا إلى ما سبق صعوبة الوصول والإحاطة بأنواع الكتابة التاريخية فيما قبل الاسلام نتيجة قلة المكتشف من آثار الأمم البائدة وما ذكرته الكتب السماوية عنها كقوم عاد وثمود وطسم وجديس فإننا لن نعدم التوصل إلى ملامح تاريخية نستشفها من خلال كتب التراث المليئة بالخيال الشعبي.

أولا : قوم عاد وثمود :

أشار القرآن الكريم إلى قوم عاد وثمود وما حاق بهم من عذاب لكفرهم وعصيانهم لأنبيائهم بصفة إجمالية دون اللجوء إلى تفاصيل دقيقة، وكان الهدف من ذلك استخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الايمان وتعميقه فى قلوب المسلمين.

ولكن الرواة الذين سبق أن أشرنا إليهم كوهب بن منبه وغيره تزيدوا وأضافوا ولجأوا إلى تفاصيل لم تشر إليها الايات الكريمة. ومن ذلك ما حاق بقوم عاد بعد غضب نبيهم هود من عصيانهم ، فقيل :

« .. إن هودا دعا عليهم، فبعث الله عليهم الريح العقيم وهي الريح التى لا تلقح الشجر، فلما نظروا إليها قالوا : هذا عارض ممطرنا. فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها تبادروا إلى البيوت ، فلما دخلوا البيوت دخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت فأصابتهم في يوم نحس.. فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيرا سودا فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه .. »[٢]

ويروى عن وهب بن منبه فى تفسير قوله تعالى : (فأهلكوا

بريح صرصر عاتية) : « . . إن عادا لما عذبهم الله بالريح التى عذبوا بها كانت تقلع الشجرة العظيمة بعروقها ، وتهدم عليهم بيوتهم ، فمن لم يكن فى بيت هبت به الريح حتى تقطعه بالجبال فهلكوا بذلك كلهم . .»[٣]

وقد ارتبط هلاك قوم ثمود ـ نبيهم صالح عليه السلام ـ بعقرهم للناقة . يقول الخبر : « . . فأتى رجل منهم صالحا ، فقال : أدرك الناقة فقد عقرت ، فأقبل فخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه : يا نبى الله إنما عقرها فلان إنه لا ذنب لنا قال : انظروا هل تدركون فصيلها ، فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه .

فلما رأى الفصيل أمه تضطرب ، أتى جبلا يقال له القارة قصيرا فصعده وذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله ـ عز وجل ـ إلى الجبل فطال فى السماء حتى ما يناله الطير . قال : ودخل صالح القرية ، فلما رآه الفصيل بكى حتى» سالت دموعه ، ثم استقبل صالحا فرغا رغوة ثم رغا أخرى ثم رغا أخرى فقال صالح : لكل رغوة أجل يوم ، تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، إلا أن آية العذاب أن اليوم تصبح وجوهكم مصفرة واليوم الثانى محمرة ، واليوم الثالث مسودة . وتحقق كلام

نبيهم، فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت بهم في صدورهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين..»[٤].

ويلاحظ على ما سبق من أخبار عاد وثمود ما يأتي:

١- تقلب الأسلوب القصصي عليها بما فيه من:

* التصوير القائم على الدقة والتفاصيل، وتتبع الحدث حتى نهايته.

* سرد الحدث وتطوره من خلال اللغة والحوار بين الشخصيات.

* قدم زمن هذه الأحداث تصعب القدرة على إثباتها ودقة تفاصيلها.

٢- مواضع الإتجاه الأسطوري والمبالغات:

* قوة الريح وعنفها إلى حد أنها (تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم).. (فمن لم يكن له بيت هبت به الريح حتى تقطعه بالجبال)

* فأوحى الله - عز وجل - إلى الجبل فطال في السماء حتى ما يناله الطير)

* التقاء الفصيل بصالح عليه السلام (فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه)

(ثم رغا رغوة ـ ثم رغا أخرى ـ ثم رغا أخرى)

* وعرف صالح عليه السلام أن لكل رغوة أجل يوم (اليوم تصبح وجوهكم مصفرة واليوم الثانى محمرة واليوم الثالث مسودة..)

ونحن لا نشكك فى مصداقية الحدث، فالله قادر على كل شيء، ولكن القرآن الكريم لم يتناول هذه الأحداث بمثل هذه التفاصيل وبأسلوبها القصصى ـ وإنما ـ كما قلنا ـ تناولها بصفة اجمالية بهدف العبرة لا المتعة الفنية فقط.

كان الطبرى قد اعتمد فى إيراد أخباره التاريخية بتفاصيلها على ابن عباس ووهب بن منبه وغيرهما من الرواة، ونقلها الطبرى عن طريق هؤلاء كما هى دون ابداء رأيه الخاص ـ إلا ماندر ـ ودون أن يقف موقف الباحثين المدققين منها بإيراد الأدلة والحجج العلمية المقنعة أو بالتعليق على الأحداث تعليقا منطقيا قائما على إعمال الفكر والعقل، واستنباط الحقيقة من وسط الركام. ومن هنا، فإننا نتقبل ما يرويه الرواة على أنه من قبيل الأساطير أو المبالغات أو ما ينمقه الخيال الشعبى من روايات

ذات أسلوب قصصي.

ثانيا: طسم وجديس:

روى عن ابن اسحق بعد سلسلة من الرواة:

« .. إن طسما وجديسا كانوا من ساكني اليمامة، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا لهم فيها صنوف الثمار، ومعجبات الحدائق والقصور الشامخة، وكان عليهم ملك من طسم ظلوم غشوم، ولا ينهاه شيء عن هواه يقال له عملوق مضرا بجديس مستذلا لهم، وكان مما لقوا من ظلمه واستذلاله أنه أمر بأن لا تهدى بكر من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها فقال رجل من جديس يقال له الأسود بن غفار لرؤساء قومه: قد ترون ما نحن فيه من العار والذل الذى ينبغى للكلاب أن تعافه وتمتعض منه فأطيعونى ، فإنى أدعوكم إلى عز الدهر، ونفى الذل قالوا: وما ذاك؟ قال: إنى صانع للملك ولقومه طعاما ، فإذا جاءوا نهضنا إليهم بأسيافنا ، وانفردت به فقتلته ، وأجهز كل رجل على جليسه. فأجابوه إلى ذلك ، وأجمع رأيهم عليه، فأعد طعاما، وأمر قومه فانتضوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل، وقال: إذا أتاكم القوم يرفلون فى

حللهم فخذوا سيوفهم، ثم شدوا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم ثم اقتلوا الرؤساء فإنكم إذا قتلتموهم لم تكن السفلة شيئا. وحضر الملك فقتل وقتل الرؤساء، فشدوا على العامة منهم فأفنوهم، فهرب رجل من طسم يقال له رياح بن مرة حتى أتى حسان ابن تبع فاستغاث به، فخرج حسان في حمير، فلما كان من اليمامة على ثلاث، قال له رياح: أبيت اللعن إن لي أختا متزوجة في جديس يقال لها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها، وأنها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث، وإني أخاف أن تنذر القوم بك، فمر أصحابك فليقطع كل رجل منهم شجرة فليجعلها أمامه، ويسير وهي في يده، فأمرهم حسان بذلك ففعلوا ثم سار، فنظرت اليمامة فأبصرتهم. فقالت لجديس: لقد سارت حمير، فقالوا: وما الذي ترين؟ قالت: أرى رجلا في شجرة معه كنف يتعرقها أو نعل يخصفها، فكذبوها. وكان ذلك كما قالت، وصبحهم حسان فأبادهم وأخرب بلادهم، وهدم قصورهم وحصونهم... وأتى حسان باليمامة ابنة مرة فأمر بها ففقئت عيناها فإذا فيها عروق سود. فقال لها: ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت: حجير أسود يقال له الأثمد كنت أكتحل به، وكانت فيما ذكروا أول

من اكتحل بالأثمد . . »[٥] .

ويلاحظ على الخبر السابق ما يأتي :

* استخدام الأسلوب القصصي القائم على تطور الحدث وتفاصيله، والاعتماد على الحوار بين الشخصيات .

* المبالغة التي تثير العجب والدهشة حول حجر الأثمد وتأثيره على قوة الابصار الذي جعل اليمامة (ليس على وجه الأرض أبصر منها) وأنها قادرة على رؤية جيش العدو على بعد مسيرة ثلاثة أيام (أنها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث)

ثالثا: شمشون وجرجيس:

ومن الشخصيات التي دارت حولها الأساطير والخرافات والخوارق والمبالغات (شمشمون) أو (شمسون) و(جرجيس) .

ففي سلسلة من الرواة ينتهون بو هب بن منبه اليماني عن (شمسون) أنه كان « . . من أهل قرية من قرى الروم قد هداه الله لرشده، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها ، وكان شمسون فيهم رجلا مسلما، وكانت أمه قد جعلته نذيرة، وكان من أهل قرية من قراهم، كانوا كفارا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها

على أميال غير كثيرة، وكان يغزوهم وحده، ويجاهدهم في الله فيصيب منهم وفيهم حاجته فيقتل ويسبي ويصيب المال، وكان إذا لقيهم، لقيهم بلحى بعير لا يلقاهم بغيره، فإذا قتلوه وقاتلهم وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذى في اللحى ماء عذب فيشرب منه حتى يروى، وكان قد أعطى قوة في البطش، وكان لايوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم في الله ويغزوهم ويصيب منهم حاجته لايقدرون منه على شيء حتى قالوا: لن تأتوه إلا من قبل امرأته، فدخلوا على امرأته فجعلوا لها جعلا، فقالت: نعم، أنا أوثقه لكم، فأعطوها حبلا وثيقا، وقالوا: إذا نام فأوثقي يده إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذه فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بذلك الحبل، فلما هب جذبه بيده فوقع من عنقه، فقال لها: لم فعلت؟ فقالت: أجرب به قوتك، ما رأيت مثلك قط، فأرسلت إليهم إني قد ربطته بحبل فلم أغن عنه شيء، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد، فقالوا: إذا نام فاجعليها في عنقه، فلما نام جعلتها في عنقه، ثم احكمتها، فلما هب جذبها فوقعت من يده ومن عنقه، فقال لها: لم فعلت هذا؟ قالت: أجرب به قوتك ما رأيت مثلك في الدنيا يا شمسون، أما في الأرض شيء يغلبك؟ قال:

لا إلا شيء واحد، قالت: وماهو؟ قال: ما أنا بمخبرك به، فلم تزل به تسأله عن ذلك، وكان ذا شعر كثير، فقال لها: ويحك، إن أمي جعلتني نذيرا فلا يغلبني شيء أبدا، ،ولا يضبطني إلا شعري.

فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه، فأوثقه ذلك، وبعثت إلى القوم فجاءوا فأخذوه، فجدعوا أنفه وأذنيه، وفقئوا عينيه، ووقفوه للناس بين ظهراني المئذنة، وكانت مئذنة ذات أساطير، وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به، فدعا الله شمسون حين مثلوا به ووقفوه أن يسلطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المئذنة التي عليها الملك، والناس الذين معه فيجذبهما، فجذبهما فرد الله عليه بصره وما أصابوه من جسده، ووقعت المئذنة بالملك ومن عليها من الناس فهلكوا فيها هدما..»(٦)

وإذا كان (شمسون) نبيا فلا غرابة لو أتى بالخوارق أو المعجزات، ولكن الخبر أشار إلى كونه(رجلا مسلما): ومعنى ذلك أنه إنسان عادي مؤمن عرف الله بين قوم يعبدون الأصنام في قرية من قرى الروم.

وقد عرف -في الجاهلية- أشخاص وجماعات آمنوا بالله،

واعتنقوا ديانات سابقة على الاسلام كاليهود والنصارى والصائبة وغيرهم من الجماعات التى تدين بالتوحيد، كما عرف أشخاص اهتدوا إلى عبادة الله دون الالتزام بدين معين كورقة بن نوفل وأمية بن أبى الصلت وزهير بن أبى سلمى وغيرهم، ومع ذلك فلم ينسب الرواة أو المؤرخون إليهم أية خوارق أو معجزات.

ومن هنا يحق لنا أن نقول إن شمسون كان رجلا مسلما مؤمنا، ولكن ما نسب إليه من خوارق أو معجزات أو تفصيلات ما هى إلا إضافات وضعها رواة القصص التاريخى، واستخدموا فى سرد هذه القصص أسلوبا تميز بالتكرار لبعض المواقف والعبارات والألفاظ (تكرار الفعل كان). أما المواضع التى لا تتفق - فى اعتقادنا - مع المنطق والعقل فتبدو وفيما يأتى:

*مواجهة شمسون وحده وبلا مساعدة أخرى من رجال أو عتاد جيشا روميا يقاتلهم بلحى بعير فيقتل ويسبى ويصيب المال منهم (نجد مثل ذلك فى بعض الملاحم الشعبية العربة كملحمة على بن أبى طالب رضى عنه) * إذا تعب من القتال، وعطش (انفجر له من الحجر الذى فى اللحى ماء عذب فيشرب منه حتى يروى).

* تركيز قوته الخارقة فى شعره دون بقية جسده، فلا يغلبه شىء أبدا.

* استرداد بصره وأنفه وأذنيه التى جدعها الروم بقدرة الله سبحانه وتعالى ثم تدمير المئذنة أو المعبد على الملك وأتباعه.

وينسب رواة القصص التاريخى المطعمة بالأساطير والخوارق والمعجزات لشخصية أخرى هى (جرجيس) الذى قيل عنه أنه كان " «.. عبد الله صالحا من أهل فلسطين ممن أدرك بقايا من حواريى عيسى بن مريم (عليه السلام) وكان تاجرا يكسب بتجارته ما يستغنى به عن الناس..»(٧)

ويروى الخبر - أيضا - أن (جرجيس) رفض السجود لصنم أقامه ملك الموصل الكافر للعبادة، وقد زينه بالذهب والفضة فلما رفض (جرجيس) الخضوع للملك، والسجود للصنم، تعرض لألوان من العذاب لا قبل لبشر أن يتحملها. فإذا استعرضنا ما حدث له من تمزيق جسده أجزاء ثم عودته للحياة، فلن نستغربها - كمعجزات - حين تصدر من نبى أو رسول ولكن الخبر يؤكد:

أنه: عبد صالح مؤمن بالله وأنه يكسب بتجارته وأنه ممن أدرك بقايا من حواريى عيسى بن مريم (عليه السلام) فهل هذه

الحقائق كافية لتجعل منه نبيا أو رسولا ؟! ومن ثم نطلق على ما حدث له بأنها معجزات، ولكن الخبر جعل منه انسانا عاديا وعبدا صالحا مومنا بالله، ومع ذلك فقد جعل الخبر منه أسطورة. فقد(.. مدوه بين خشبتين، ووضعوا عليه سيفا على مفرق رأسه، فنشروه حتى سقط بين رجليه، وصار جزلتين، ثم عمدوا إلى جزلتيه فقطعوهما قطعا، وله سبعة أسد ضاربة فى جب، وكانت صنفا من أصناف عذابه، ثم رموا بجسده إليها، فلما هوى نحوهما أمر الله بالأسد فخضعت برءوسها وأعناقها، وقامت على براثنها لا تألوا أن تقيه الأذى، فظل يومه ذلك ميتا فكانت أول ميتة ذاقها، فلما أدركه الليل جمع الله له جسده الذى قطعوه بعضه إلى بعض حتى سواه، ثم يرد فيه روحه وأرسل ملكا فأخرجه من قعر الجب، وأطعمه وسقاه وبشره، وعزاه..»(٨)

رابعا : حمير وملوكها التبابعة:

إن كتاب (التيجان فى ملوك حمير) لوهب بن منبه من كتب التراث التى اهتمت بتقديم وتسجيل أخبار ملوك حمير وتاريخهم.

ويشارك كتاب(أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال والحمد لله على كل حال ويشارك كتاب وهب في الاهتمام والتركيز على تاريخ اليمن وملوكها وعهودهم.

ويعتمد الكتابان في منهجمهما على الوصف المفصل ، والسرد المطول ، والحوار المنسق ، في أسلوب نثرى ، مطعم بقصائد شعرية تتراوح بين الطول والقصر وتتناسب مع المواقف والأحداث ، يجريها وهب وعبيد على ألسنة آدم - عليه السلام - ومن جاء بعده من ملوك اليمن من حمير والتبابعة.

وإذا كان وهب يركز اهتمامه في عرض الأحداث على تسلسل أنساب الملوك وسرد أخبارهم ، فإن عبيدا جعل من الحوار الدائر بينه وبين معاوية بن أبي سفيان وسيلة فنية لعرض أحداثه ، والتركيز عليها.

وما يقدمه وهب وعبيد من أحداث وشخصيات لسنا مطالبين بتحقيقها تاريخيا وبمدى ما فيها من حقائق أو أباطيل ، ومدى صحتها أو كذبها ولكن مركز اهتمامنا ومحور تركيزنا هو ما في الكتابين من أوصاف خرافية ، وتفاصيل أسطورية يبعدها عن الحقائق التاريخية.

ونحن ننتقي من الأحداث والشخصيات التي يزخر الكتابان بهـا مـا يدخل في باب القـصص التـاريخي المطعم بالأسـاطيـر والاسرائيليات ، وما ننتقيـه ـ مع قلته ـ يشير إلى منهج الكتابين ، ونعتبره نماذج لما يتضمنه الكتـابان وما يهدف إليه الكاتبـان ، ومثال ذلك :

١ـ قصة المغارة التي فيـها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم :

استـهل وهب قصـة مغارة شداد بن عاد ، وجعل لهـا مقدمة تتحدث عن تسلسل نسب شداد فهو (شداد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان)[٩] ثم تحدث وهب عن فتوحاته ، ثم أشار إلى أن شداد بن عاد هو من بنى في مأرب باليمن القصر العتيق الذي يسميه بعض الرواة (أرم ذات العماد) فلم يدع باليمن درا ولا جوهرا ولا عقيقا ولا جزعا ولا بأرض بابل وأرسل في الآفاق بجمع ذلك فجمع جواهر الدنيا من الذهب والفضة والحديد والقصدير والنحاس والرصاص فبنى فيه وزخرفه ورصعه بجميع ذلك الجواهر وجعل أرضه رخاما أبيض وأحمر وغير ذلك من الألوان وجعل تحتها أسرابا فاض إليها ماء السد فكان قصرا لم

يبن فى الدنيا مثله ، ثم مات شداد بن عاد بعد أن عمر خمسمائة عام[١٠]

وحينما يطلق وهب كلمة (قصة) على الخبر المروى عن مغارة شداد بن عاد ، لا نعتقد أنه أراد المفهوم الحديث للفظ ، وإنما أشار ـ فى اعتقادنا ـ إلى أن ما يرويه من أخبار فيها يتداخل الخيال الفنى فى البناء والسرد والحوار .

وكعادة وهب ـ قبل إيراد الخبر ـ يستهل كلامه بتسلسل الرواة فيقول :

«قال وهب : قال أبو محمد عبدالملك بن هشام حدثنا زياد بن عبد الملك عن محمد بن اسحق المطلبى ، عن عبيد بن شربة الجرهمى قال : حدثنا شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة ، وكان معمرا عالما بملوك حمير وأمورها ـ قال لنا : كان باليمن رجل من عاد بن قحطان وهو عاد الأصغر ، وأما عاد الأكبر فلم يبق منهم أحد . . وأن هذا الرجل العادى كان يقال له الهميع بن بكر ، وكان جسورا لا يهاب أمرا ، وكان يعرف بذلك ، وكانت الصعاليك تقصده من آفاق الأرض وكان أكثر طلبه المغارات يطلبها فى جبال اليمن وعمان والبحرين ، وأنه أتاه رجل فاتك من عبس واخر من خزاعة ، وكانا صعلوكين جسورين ، فقالا له

: يا همـيـع احـملنا من أمـرك على مـا تريده فـأنا يبلغ مـرادك فمضى بهما الهميع حتى أتى بهما جبلا وعليه غابة فيها ثعابين لا ترام.[١١].

وهنا تبـدأ رحلة الهـمـيـع مع الـصـعلوكين اللذين لم يصـمـدا طويلا للأهوال المرعبة التى واجهـتـهم داخل كهف فـوق الجبل فهربا تاركين الهميع يواجه وحده طلاسم عدة مهلكة من خلال أبواب ثلاثة، وعند كل باب يجتازه يجد نقشا حميريا لبيتين أو أكـثـر من الشـعـر، وفى أعـمـاق الكهف يواجـه الهـمـيـع حيـات يصفـرن عن يمين وشمال.. ورياح تجرى من داخل الكهف ودوى هائل، بعدها بابا برز إليـه تنين أحـمـر العينـين فاتح فاه فلمـا رآه الهـمـيـع رجع هاربا إلى خلفـه فـسكت حس التنين[١٢] وأدرك الهميع - بعد أن استعاد رباطة جأشه - أن التنين ما هو إلا طلسم. وعندمــا أدركـــه الليل تـسلل - هاربـا - من الـكـهـف، ولكـن نارا عظيمـة لاحقتـه من داخله فصبـر لها، فلم تؤلم فيـه شيئا، تلتـها أخرى أشد وأقوى فصبر لها ولم تؤذه.

وعاود الهميع اقتحامه للكهف حتى وصل إلى التنين ثم حفر على بقية حد التنين حتى قلعه، وسقط التنين، فقلع عينيه، فإذا هما ياقوتتان حمراوان لا قيمة لهما.

وعند باب آخر برز له أسد عظيم، وفعل به كما فعل بالتنين.

وهكذا واجه الهميع - كالبطل الأسطورى - عقبات مدمرة اجتازها بنجاح حتى وصل إلى مبتغاه . فإذا هو بدار عظيمة، وفيها بيت فى وسطه سرير من ذهب وعليه شيخ على رأسه لوح من ذهب معلق، وسقف البيت مرصع بأصناف اليواقيت، وعلى رأسه فى الحائط لوح من ذهب فيه مكتوب (أنا شداد بن عاد عشت خمس مائة عام، وافتضضت فيها ألف بكر، وقتلت ألف مبارز، وركبت ألف جواد من عتاق الخيل) وتحته مكتوب خمسة أبيات من الشعر تنصح قارئها بألا يغتر بالدنيا، أو يأمن للزمان وتقلباته.

قال: ثم ملت إلى الركن الذى عن يمينه فإذا هو سرير من ذهب، وعليه جاريتان فوق رأسهما فى الحائط لوح من ذهب أو قال من عاج فيه مكتوب أنا (حبه) وهذه لبة بنت شداد بن عاد أتت علينا أزمان أنفقنا فيها الطارف والتليد على عبيدنا ، ثم طلبنا صاعا من برر بصاغ من در فلم نجده فمن رآنا فلا يثق بالزمان وليكن على بيان فإنه يحدث العز والهوان) قال : فأخذ الهميع الألواح وما بالبيت من در وجوهر وياقوت وخرج[١٣]

وإلى هنا ينتهى الخبر أو قصة شداد بن عاد كما رواها وهب

بن منبه عن عبيد بن شربة الجرهمي.

ونستخلص ـ مما سبق ـ بعض التعليقات المتمثلة فيما يأتي:

* يعتمد أسلوب القصة على حوار نثرى، وشعر يتضمن الحكم والمواعظ والنصائح التى تتناسب مع كل مرحلة أو موقف، ويقوم الشعر بوظيفة فعالة إذ يساهم فى تطور الأحداث والمواقف التى يمر بها الهميع وهو الشخصية الرئيسية فيها.

* يكشف الحوار الدائر بين الهميع والصعلوكيين عن جوانب شخصية فى التكوين والوظيفة، فالهميع يتميز بالجرأة والشجاعة والقيادة، والصعلوكان فى تكوين شخصيتهما جبن وخور بالرغم من طبيعة دورهما فى الحياة وهى الصعلكة.

* الثعابين والتنين والأسد التى واجهها الهميع فى رحلته داخل الكهف ما هى إلا طلاسم تذكرنا بطلاسم ألف ليلة وليلة.

* يستهدف وهب عند سرد الخبر بأسماء رواة يحرص فيها على التسلسل، غرس الايحاء بمصداقية ما يروى، وإلباسه ثوب الحقيقة على الرغم من اتجاهه الأسطورى الواضح.

* يحرص وهب على إثارة ملكة التخيل لدى المتلقى، واستمرارية عنصر التشويق لديه فى السرد والوصف والحوار

وتطور الأحداث.

٢ـ مقتل تبع الأوسط أبى كرب أسعد الكامل وتولية ابنه حسان بن تبع:

أورد عبيد بن شربة الجرهمى تفاصيل الخبر بعد سؤال معاوية بن أبى سفيان له: فأخبرنى عن قتل تبع أسعد الكامل ؟ كيف كان ولم قتله قومه؟

وشرع عبيد يروى لمعاوية كيف أن تبعا كان من عبدة الأصنام ثم تهود على يد حبرين من اليهود من اليمن دخلا عليه، فأحب أمرهما وما عما عليه، ورأى أن الذى هما عليه أفضل: فآمن بالله، وصدق بنبيه موسى بن عمران عليه السلام، وما أنزل الله من التوراة. فأمر الحبرين أن يدعوا إلى دينهما فى لطف ورفق، ففعلا ما أمرهما[١٤].

فلما رأت ذلك حمير خرجوا إلى تبع وثاروا ضده وطلبوا منه قتل الحبرين، لكنه رفض، فأجمع قوم تبع على أن يحاكموهما إلى نار فى اليمن، يقال إنها كانت بصنعاء، فانطلقوا حتى أتوا النار فنحروا عليها الجزر وقربوا القربان، ثم تقرب الحبران فلم يزالا يقرآن كتاب الله من التوراة حتى خرجت لهما فمضيا فيها حتى جاوزاها، ودعا تبع سادة أهل اليمن فاجتمعوا

وأرسلت النار نحوهم فأحرقتهم ، ونجا الحبران ، وأمرا النار أن تطفأ فطفأت(١٥)

فثارت حمير على تبع وقتلوه ، ثم ولوا عليهم ابنه حسان بن تبع .

والخبر يلقى الضوء على مواضع تدعو للعجب ، فالحبران يقتحمان النار دون أن تضرهما ، ويأمرانها أن تطفأ فتستجيب لأمرهما وتنطفىء ، وهكذا صور الخبر مكانة الحبرين إلى درجة تذكرنا بما حدث من النمرود لابراهيم عليه السلام من محاولة احراقه ثم نجاة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وخروجه من النار سالما بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فهل كان للقصص الدينى تأثير على وهب وعبيد فيما رووه من قصص وأساطير .

ولنا وقفة عند حسان بن تبع ، إذ أن السير الشعبية تصوره ملكا من التبابعة القساة الجبارين ، بينما يصوره عبيد بن شرية ـ تاريخيا ـ ملكا مسالما يكره الغزو والقتل . وقد أراد عبيد أن يثبت هذا الجانب الانسانى فى شخصية حسان بن تبع ، ولكن بطريقة رمزية يلعب فيها الخيال القصصى دورا بارزا .

فقد دعا تبع ابنه حسانا قبل مقتله وأوصاه أن يأتى جبلا باليمن إذا هو ملك ، ثم ينظر من يأتيه من ذلك الجبل فيأكل ما

أطعم، ويشرب ما سقى، ويفعل ما أمر[١٦] فلما قتل تبع، أراد حسان أن ينفذ وصية أبيه، فتوجه إلى الجبل فلقيته امرأة فرحبت به وقالت: اقعد، فلما أراد القعود إذ هو بدود كثير على فراشه ووساده فأبى أن يقعد ثم قدمت إليه رؤوس الناس ليأكل منها فأبى، فقدمت له إناء فيه دم ليشرب منه فرفض[١٧].

ولما تقابل حسان بأمه وقص عليها ما حدث، فسرت له اللغز، وأبانت رموزه قائلة: لو أنت جلست على الدود لاستوطأت الملك، ومد لك في العمر، ولو أكلت الرؤوس دانت لك حمير وذلت له العرب وأهرقت دماء أهل الأرض[١٨].

وقد أقام حسان بحمير زمانا لا يغزو بهم حتى طمع في ملكهم ناس من أهل اليمن وجرهم.

وهكذا صور القصص التاريخي حسان بن تبع ملكا مسالما، كارها للغزو وإراقة الدماء، وبذلك يتعارض التاريخ مع ما صورته السير الشعبية عن أعماله ومظالمه المنفرة وخاصة ملحمة الزير سالم.

الهوامش

(١) حسين نصار / نشأة التدوين التاريخي عند العرب - النهضة المصرية ص ٥ . ٦ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك - الطبري - جـ ١ ص ١١٥ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٥ .
(٤) السابق جـ ١ ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري / تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ / ط أولى / طبعة الحسينية المصرية ص : ٣٨ - ٣٩ .
(٦) الطبري جـ ٢ ص : ٤٧ ، ٤٨ .
(٧) الطبري جـ ٢ ص ٤٨ .
(٨)الطبري ص (٥٠ ، ٥١) .
(٩) وهب بن منبه - كتاب التيجان في ملوك حمير - الذخائر (١٠ - الهيئة - أكتوبر ٩٦ ص ٧٤ .
(١٠) السابق ص ٧٤ .
(١١) السابق ص ٧٥ .
(١٢) السابق ص ٧٧ .
(١٣) السابق ص : ٧٧ ، ٧٨ .
(١٤) أخبار وهب بن منبه - عبيد بن شربه الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال . والحمد لله على كل حال . ص (٤٩٣)
(١٥) السابق ص ٤٩٣
(١٦) ، (١٧) السابق ص ٤٩٤ .
(١٨) السابق ص ٤٩٤ .

الفصل الرابع

الجغرافيون والاسرائيليات وتصوراتهم الأسطورية

تمهيد:

جبل الانسان على حب الاستطلاع ، واشباع غريزة التنقل والرحلة فيه ، واستكشاف العالم المجهول الذى يثير فيه دوافع ورغبات تدفعه إلى التضحية والمغامرة ، كما تثير الطبيعة بما فيها من رياح وأمطار ، ورعد وبرق وزلازل وغيرها الخوف والترقب الدائم لشر يجهل مصدره ، وكوارث تهدده وتحيط به . فيلجأ - منذ بداية الخليقة - إلى استرضاء آلهة الظواهر الطبيعية بالذبائح ، والقرابين ، والطقوس .

وعندما ارتقى الفكر البشرى ، وتدرج الانسان فى مراحل الحضارة ، واستقر وعرف الزراعة والتجارة دفعته غريزة حب الاستطلاع - أيضا - إلى أن يجوب العالم متنقلا فى رحلات استكشافية أو تجارية أو استعمارية قاسى فيها من ألوان المتاعب والأهوال ما يعرضه للخطر والهلاك ، ولكن رغبته فى إشباع

معرفته بمن جاوره من شعوب افريقيا وآسيا وأوروبا، والممالك والبلدان ووصف حياة شعوبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، دفعته إلى المغامرة بالقيام برحلات برية وبحرية منذ حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ومنها الرحلة التى حدثت فى عهد الملكة (حتشبسوت) فى عهد الأسرة السادسة المصرية وكانت الرحلة عبارة عن حملة من خمس سفن كبيرة فى البحر الأحمر إلى بلاد (بنت) (الصومال) عام ١٤٩٥ ق.م.

واشتهر الفينيقيون والاغريق واليونان والرومان برحلاتهم برا وبحرا.

وعرف العرب - منذ الجاهلية - برحلاتهم التجارية برا وبحرا فقد أشارت كتب المؤرخين إلى أن العرب (اشتهروا بالتجارة مع شعوب افريقية فى شمالها وشرقها وأيضا فى شرق الجزيرة حتى الهند وما وراءه كما كانت للعرب رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق والشام واليمن وعندما جاء الاسلام، شجع القرآن الكريم على قيام المسلمين بالرحلات لهدفين:

* البحث عن الرزق.

* العبرة والموعظة لما حاق الممالك والشعوب السابقة من

دمار كعقاب إلهى لكفرهم وفجورهم.

هذا بالإضافة إلى البعثات التبشيرية والدينية والعلمية لنشر الاسلام بين الشعوب المتخلفة حضاريا على مدار العصور الاسلامية.

وقد سجل التاريخ أسماء الرحالة ورحلاتهم منذ القرن التاسع الميلادى حتى عصر النهضة الحديثة.

والمطلع على بعض مؤلفات هؤلاء الرحالة - خاصة القدماء منهم - يروعه ذلك الخلط بين الواقع والخيال فيما سجلوه من مشاهدات فى عالم البحار والمحيطات، وجزرها، وشعوبها.

ولقد تأثرت مشاهداتهم وما سجلوه عنها بثقافتهم، وعصرهم، وبيئتهم وتصوراتهم، واختلط الواقع بالخيال، وما غمض أو نقص فى واقع ما شاهدوه أكملوه بخيالهم.

ومن هنا وصل الواقع إلينا - يحمل مبالغات تصل إلى حد الاغراب والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الاخبار الاسطورية.

ومن علماء العرب الجغرافيين الذين اعتمد منهجهم على النقل والتسجيل فى مبالغات ملموسة سراج الدين أبى حفص عمر بن الوردى، صاحب كتاب (خريدة العجائب وفريدة

الغرائب) وماورد فيه من معالم كثيرة عن بلدان العالم شرقا وغربا، وما أورده من عجائب وغرائب المحيطات والبحار والجزر والآبار والجبال وغيرها.

وقد اعتمد المؤلف في جمع مواد بحثه على مصادر ذكرها في مقدمته وهي «شرح التذكرة لنصر الدين الطوسي، وجعفر الأنبياء لبطليموس، وتقويم البلاد للبلخي، ومروج الذهب للمسعودي، وعجائب المخلوقات لابن الأثير الجزري، والمسالك والممالك للمراكشي، وكتاب الابتداء..»(٥)

ومن علماء العرب الجغرافيين ـ أيضا ـ الإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني (٦٠٠ ـ ٦٨٢هـ) وكتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)(٦)

يقول في المقدمة عن نسبه:

«.. يقول العبد الأصغر زكريا بن محمد محمود القزويني تولاه الله بفضله وهو من أولاد بعض الفقهاء الذين كانوا موطنين بمدينة قزوين وينتهي نسبه إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٧)

ولم يكن القزويني إلا مجرد ناقل لما قرأه من عجائب وغرائب وحكايات، وكان مجرد واسطة في ايرادها كما هي

دون تدخل منه بالقبول أو الرفض لها يقول فى مقدمته:

«.. وعلى الناظر فى كتابى هذا أن يعنى فى جمع ما كان مبددا، وتلفيق ما كان مشتتا، وقد ذكر فيه أسبابا تأباها طباع الغبى الغافل، ولا ينكرها نفس الذكى العاقل، فإنها وإن كانت بعيدة عن العادات المعهودة، والمشاهدات المألوفة، لكن لا يستعظم شىء مع قدرة الخالق، وجبلة المخلوق وجميع ما فيه: أما عجائب صنع البارى تعالى، وذلك إما محسوس أو معقول لا ميل فيهما ولا خلل، وأما حكاية طريفة منسوبة إلى رواتها لا ناقة لى فيها ولا جمل، وأما خواص غريبة وذلك مما لا يفى العمر بتجربتها، ولا معنى لترك كلها لأجل الميل إلى بعضها .. على أنى أشهد الله تعالى أن شيئا منها ما افتريته بل كتبت الكل كما اقتريته..»[٨]

وهكذا يقرر القزوينى أن ما أورده من مشاهدات أو عادات أو غير ذلك كان مسجلا لها كما هو دون تزيد أو إقلال أو افتراء.

ولم يختلف القزوينى - فى منهجه - عن ابن الوردى فيما تناوله من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات خاصة ما يتصل منها بالفلكيات أو الغيبيات أو من الظواهر الطبيعية

كالمحيطات والبحار والآبار والأنهار والجزر وغيرها .

ولا نستطيع أن نلم بكل ما جاء به ابن الوردى والقزوينى من هذه العجائب والغرائب التى تكشف عن الجوانب الأسطورية فيها، وإنما سنركز على بعضها كنماذج يتحقق بها هدف الكتابين منها .

وتدور هذه النماذج حول الموضوعات الآتية :

أولا : كيفية استقرار الأرض فى بداية تكوينها .

ثانيا : المدن الأسطورية مثل : أرم ذات العماد والقسطنطينية وأراضى يأجوج ومأجوج .

ثالثا : المحيطات والبحار والجزر

رابعا : الآبار والجبال .

أولا : كيفية استقرار الأرض بعد تكوينها :

حاول الجغرافيون القدماء - برحلاتهم وتصوراتهم - الوصول إلى شكل الأرض وتساءلوا : هل هى بيضاوية أو كروية ؟ مسطحة أو منبعجة ؟ ثم تساءلوا هل هى ثابتة مستقرة أو متحركة ؟ وظل الجغرافيون . معتقدين - فى ثباتها واستقرارها ، وأيدت الأسطورة اعتقادهم إلى أن أثبت العلم الحديث كروية

الأرض ودورانها حول الشمس وحقائق جغرافية أخرى لا مجال للشك فيها.

ويهمنا ما تصوره الرواة القدماء والجغرافيون لكيفية ثبات الأرض واستقرارها، وما اعتقدوه في ذلك من أساطير تؤيد ما قاله بعض الجغرافيين القدماء.. فقد روى:

«.. إن الله - تعالى - لما خلق الأرض كانت تتكفأ كما تتكفأ السفينة، فبعث الله ملكا فهبط حتى دخل تحت الأرض فوضعها على كاهله ثم أخرج يديه، إحدهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، ثم قبض على الأرضين السبع فضبطهما فاستقرت، ولم يكن لقدم الملك قرار، فأهبط الله ثورا من الجنة له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة فجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تصل قدماه إلى سنامه، فبعث الله - تعالى - ياقوتة خضراء من الجنة غلظها مسيرة كذا ألف عام فوضعها على سنام الثور، فاستقرت عليها قدما الملك وقرون الثور خارجه من أقطار الأرض، ممتدة إلى العرش ومنخر الثور في ثقبين من تلك الياقوتة الخضراء تحت البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسين وإذا تنفس مُدَّ البحر، وإذا رد النفس جزر البحر، ولم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله كثيبا من رمل كغلظ سبع سموات وسبع أرضين

فاستقرت عليه قوائم الثور، ثم لم يكن الكثيب مستقرا فخلق الله حوتا يقال له (البهموت) فوضع الكثيب على وبر الحوت، والوبر الجناح الذي يكون في وسط ظهره، وذلك الحوت مذموم بسلسلة من القدرة كغلظ السموات والأرض مرارا..»[٩] وزعم وهب «أن الثور والحوت يبتلعان ما يذهب من مياه الأرض في البحار فلذلك لا توثر في البحور زيادة، فإذا امتلأت أجوافها من المياه قامت القيامة..»[١٠]

وقبل أن نستقصي الجوانب الأسطورية فيما سبق، نود أن نقرر حقيقة لاشك فيها هي أن الله بقدرته ومشيئته يقول للشيء كن فيكون، وقادر على أن يخلق الأرض ويشكلها كما يشاء.

ولكن ما سبق من وضع واختلاق رواة الأساطير خاصة فيما يتعلق بتفاصيل الخبر حول استقرار الأرض ونباتها.. ومن ذلك:

* بلغت ضخامة الملك الذى يحمل الأرض بما عليها ومن عليها أن يديه إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب.

* ولكى تستقر الأرض على كاهل الملك أهبط الله له ثورا من الجنة له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة.

* ونظرا لضخامة الثور الخرافية جعل لقوائمه ياقوتة ترتكز عليها وتستقر خضراء (يلاحظ غلبة اللون الأخضر على كثير من الموصوفات) ومجلوبة من الجنة وغلظها مسيرة كذا ألف عام.

* يبرر الراوى حركة المد والجزر فى البحار تبريرا اسطوريا، إذ ترجع هذه الحركة إلى أنفاس الثور(فهو يتنفس كل يوم نفسين، فإذا تنفس مد البحر وإذا رد النفس جزر البحر)

* يبلغ غلظ الكثيب الرملى الذى ترتكز قوائم الثور عليه سبع سموات وسبع أرضين.

* يبرر الراوى (وهو وهب بن منبه) انعدام حدوث فيضانات فى بحار العالم لأن « .. الثور والحوت يبتلعان ما ينصب من مياه الأرض فى البحار ، فلذلك لا تؤثر فى البحور زيادة..» وهو تبرير مخالف للواقع الجغرافى فى الطبيعة.

* ويربط الراوى بين يوم القيامة محددا قيامها بسبب اسطورى هو امتلاء جوف الثور والحوت بمياه المحيطات والبحار دون توقف، فإذا حدث العكس قامت القيامة ، فيقول :

« .. فإذا امتلأت أجوافها ـ أى الحوت والثور ـ من المياه قامت القيامة..» ،وهو تبرير لا نجد له سندا أو دليلا.

ثانيا : المدن والمناطق الأسطورية :

يتعرض الرحالة كابن جبير وابن بطوطة لوصف ما يشاهدونه فى رحلاتهم لحياة الشعوب : طرق معيشتهم - عاداتهم وتقاليدهم - موقفهم من واقعهم السياسى والاجتماعى والفكرى ، ثم يسجلون تجاربهم ومشاهداتهم الواقعية ، متعدين منطق العقل ويقتربون من الخيال الشعبى ، فهو الانغماس فى عالم الأساطير الممتع خاصة فى وصفهم التفصيلى لمدن قد يكون لها وجود فعلى ملموس أو مدن لا وجود لها فى عالم الواقع .. ومنها :

١- ارم ذات العماد :

وهى المدينة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، والتى لم يخلق مثلها فى البلاد وقد كان ذلك كافيا لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من خيالهم أسطورة ، أحداثها منسوبة إلى صحابى جليل هو عبد الله بن قلابة روى فيها - بالتفصيل - ما رآه ، وما حدث له ، فيقول :

إنه : « .. خرج فى طلب ابل له شردت ، فبينما هو فى صحارى بلاد اليمن وأرض سبأ إذ وقع على مدينة عظيمة

بوسطها حصن عظيم، وحوله قصور شاهقة فى الجو، فلما دنا منها ظن أن بها سكانا أو أناسا يسألهم عن ابله، فإذا هى قفر ليس بها انس ولا حسيس قال: فنزلت عن ناقتى، وعقلتها ثم استللت سيفى ودخلت المدينة، ودنوت من الحصن فإذا ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا مثلهما فى العظم والارتفاع، وفيهما نجوم مرصعة من ياقوت أبيض وأصفر يضىء بها ما بين الحصن والمدينة، فلما رأيت ذلك تعجبت منه، وتعاظمنى الأمر، فدخلت الحصن وأنا مرعوب ذاهب اللب، وإذا الحصن كمدينة فى السعة، وبه قصور شاهقة، وكل قصر منها معقود على عمد من زبرجد وياقوت، وفوق كل قصر منها غرف وفوق الغرف غرف أيضا، كلها مبنية بالذهب والفضة، مرصعة باليواقيت الملونة والزبرجد واللؤلؤ، ومصاريع تلك القصور كمصاريع الحصن فى الحسن والترصيع، وقد فرشت أراضيها باللؤلؤ الكبار، وبنادق المسك والعنبر والزعفران، فلما عاينت ما عاينت من ذلك ولم أر مخلوقا كدت أن أصعق فنظرت من أعالى الطرف فإذا بأشجار على حافات أنهار تخرق أزقتها وشوارعها، منها ما أثمرت، ومنها لم تثمر، وحافات الأنهار مبنية بلبن من فضة وذهب، فقلت: لاشك أن هذه الجنة الموعود

بها في الاخرة، فحملت تلك البنادق واللؤلؤ ما أمكن، وعدت إلى بلادي..»[١١]

ولكي يضفي الراوي على ما سبق جوا من الصدق المغلف بالحقيقة ذكر أن هذا الخبر كان في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي عرف من كعب الأحبار أنها مدينة ارم ذات العماد والتي بناها شداد بن عاد الأكبر، فلما طلب معاوية من كعب تاريخ بنائها اندفع كعب في سر سبب ذلك بقوله:

«.. فمات شديد بن عاد فملك شداد الملك بعده على الانفراد، وكان مولعا بقراءة الكتب القديمة، وكلما مر به ذكر الجنة وما فيها من القصور والأشجار والثمار وغيرها مما في الجنة، دعته نفسه أن يبني مثلها في الدنيا عتوا على الله عز وجل، فأمر على ابتنائها ووضع مائة ملك، تحت يد كل ملك ألف قهرمان... وتستمر الرواية، وتبنى المدينة في «.. ثلاثمائة سنة جدا من غير تعطيل أبدا، وكان شداد قد عمر من العمر تسعمائة سنة..»[١٢] وبعد أن تم بناؤها أراد شداد أن يراها فـ «.. سار شداد بمن معه من الأحشاد مسرورا ببلوغ المراد، حتى إذا بقي بينه وبين ارم ذات العماد مرحلة واحدة، أرسل الله عليه وعلى من معه من الأمة الكافرة الجاحدة صيحة من سماء قدرته

فأهلكتهم جميعا، ومحا الله آثار طرقها ومحجتها فهي في مكانها حتى الساعة على هيئتها..» [١٣]

وهكذا نرى أنفسنا ـ من خلال الوصف ـ أمام مدينة من مدن ألف ليلة «.. مبنية من ذهب وفضة، عمدها من زبرجد وياقوت، حصباؤها لؤلؤ وبنادق مسك وعنبر وزعفران..» [١٤]

ولعل تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة واضح فيما سبق.

وإذا حاولنا التحقق من تاريخ هذا اللقاء بين كعب الاحبار ومعاوية بن أبي سفيان، فإن كعبا مات(بحمص في عهد عثمان بن عفان سنة اثنتين وثلاث أو أربع وثلاثين) [١٥] وكان موت معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ تقريبا [١٦] ومعنى ذلك أن هذا اللقاء لم يحدث تاريخيا، وإنما هو موقف من وضع الرواة والقصاصين لإضفاء الحقيقة على ما يروونه.

٢ـ القسطنطينية:

تناول رواة الاخبار وصف مدينة القسطنطينية، ولكن يهمنا تلك الجزئية التي وردت في هذا الوصف، والتي نشم من خلالها عبق ألف ليلة، وتركز هذه الجزئية على منارة المدينة، فـ

« .. عليها قبر قسطنطين بانى القسطنطينية وهو راكب وقوائم الفرس محكمة بالرصاص ما عدا يده اليمنى فهو موقوفه فى الجو، وقد فتح كفه يشير نحو بلاد المسلمين، ويده اليسرى فيها كرة ، وهذه المنارة ترى على مسافة يوم فى البحر ونصف يوم فى البر، ويقولون إن فى يده طلسما يمنع العدو..»(١٧)

وبجانب الخبر - فى معظمه - الواقع والحقيقة، ولكننا نتوقف عند عبارة (ويقولون إن فى يده طلسما يمنع العدو..) فهى تدل على ما أحاط هذه المدينة من أخبار وأساطير وأوصاف ينعكس بعضها على ما ورد فى مدن ألف ليلة البحرية الواقعة فى المحيط وغيره.

٣- أرض يأجوج ومأجوج:

لا يحدد ابن الوردى أرض يأجوج ومأجوج تحديدا جغرافيا ملموسا، وإنما ندرك من وصفه أنها مجاورة لبلاد التبت ، وتميز بـ« .. الجبل الذى يحيط بهم يسمى قزنان، وهو جبل قائم الجنبات لا يصعد عليه أحد، وبه ثلوج منعقدة لا تنحل عنه أبدا، وبأعلاه ضباب لا يزول أبدا، وهو ماد من بحر الظلمات.. وخلف هذا الجبل من بلاد يأجوج ومأجوج عدد لا يحصى ، وفى

هذا الجبل حيات وأفاعى عظام جدا . . »[١٨]

وتروى الاخبار المروية عن وجودهم التاريخى فيقال : « . . أن يأجوج ومأجوج كانا أخوين شقيقين تناسلا ، وكانت لهم غارات على من جاورهم قبل وصول ذى القرنين إليهم ، فأخلوا كثيرا من البلاد ، وأهلكوا غزيرا من العباد . . »[١٩]

وقد أشار القرآن الكريم إلى وصول ذى القرنين إليهم ، وبناء سده العظيم ليحول بينهم وبين غيرهم من الشعوب المحيطة بهم ، وقد بالغ ابن الوردى فى وصفه لباب هذا السد ومدى ضخامته وسمكه الحديدى ، وهو بين جبلين عظيمين وقد بنى ذو القرنين هذا السد العظيم ليوقف افسادهم لمن حولهم من الشعوب الأخرى ، وانتشار الخراب فيمن حولهم .

فقد توقف كل من القزوينى وابن الوردى عند التكوين الجسدى ليأجوج ومأجوج فوصفوهم وصفا خرافيا فى قولهما : إنهم « . . قصار القدود لا يتجاوز أحدهم ثلاثة أشبار ، ووجوههم فى غاية الاستدارة ، وعليهم شعور مثل الزغب ، وآذانهم مستديرة مسترخية ، تلحق أذن الرجل منهم طرف منكبيه ، وألوانهم بيض وحمر ، وكلامهم صفير ، وفيهم زنا فاحش . . »[٢٠] ويغلف ابن الوردى رواياته الأسطورية عن

يأجوج ومأجوج بما فيها من أخبار توحى بحقائق تاريخية، فيروى ما يريد على لسان أحد الرحالة فى العصر العباسى وهو سلام الترجمان الذى « .. كان عارفا بألسن كثيرة حتى قيل إنه كان يعرف أربعين لغة، ويجارى فيها أنه رأى هذا السد عيانا وذلك أن أمير المؤمنين الواثق بالله من خلفاء بنى العباس بعثه إليه ليراه ويتحقق من كيفيته، ويخبره بصفته عن حقيقته..»(٢١)

ونفذ سلام الترجمان ما طلب منه، واستغرقت الرحلة ذهابا وإيابا «سنتين وأربعة أشهر»(٢٢)

ويقول سلام الترجمان فى فقرة من رحلته: « .. سألت من هناك: هل رأيتم قط أحدا منهم، فأخبروا أنهم رأوا منهم عددا كثيرا فوق شرفات السد فهبت بهم ريح عاصف فرمت منهم ثلاثة، كل واحد منهم طوله دون ثلاثة أشبار، ولهم مخاليب موضع الأظفار وأنياب وأضراس كالسباع وإذا أكلوا بها يسمع لأكلهم حركة قوية، ولهم أذنان عظيمتان يفترشون الواحدة ويلتحفون الأخرى..»(٢٣)

ثالثا: المحيطات والبحار والجزر:

حظى المحيط بروايات خرافية وأخبار أسطورية ، وردت على ألسنة البحارة الذين تعرضوا لمخاطره، وواجهوا الموت المحقق بين أمواجه العاتية، وثوراته المفاجئة، ومن ثم عرف بينهم - قديما - بالبحر الأعظم.

ومن هذه الأخبار الأسطورية والروايات الخرافية أن « . . فى هذا البحر عرش ابليس لعنه الله، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء، وفيها أهلها من الجن، فى مقاله الربع الخراب من الأرض، وفيه حصون، وفيه قصور على وجه الماء طافية ثم تغيب وتظهر فيه الصور العجيبة، والأشكال الغريبة ثم تغيب فى الماء، وفيه الأصنام التى وضعها أبرهة ذو المنار الحميرى قائمة على وجه البحر، وهى ثلاثة أصنام أحدها أخضر وهو يومىء بيده كأنه يخاطب من ركب البحر يأمره بالرجوع، والصنم الثانى أحمر كأنه يشير إلى نفسه ويخاطب من ركب هذا البحر أن يقف عنده ولا يجاوزه. والصنم الثالث أبيض كأنه يومىء بإصبعه إلى البحر من جاء وجاوز هذا المكان هلك، وعلى صدر كل صنم مكتوب بالأسود هذا ما وضعه أبرهة ذو المنار الحميرى لسيدته الشمس تقربا إليها . . »(٢٤).

ويشير الخبر السابق عن هذا البحر إلى:

* تصورات الرحالة عنه، وما حاكمه خيالهم من اختلاق الروايات والاخبار الأسطورية كعرش ابليس ومدائن الجن، والحصون والقصور التى تظهر وتختفى. إله.

* تذكرنا الأصنام الثلاثة التى وضعها أبرهة ذوالمنار فى البحر بالتماثيل النحاسية العجيبة التى كان رحالة ألف ليلة - ومنهم سندباد البحرى - يذكرونها فى رحلاتهم.

* كانت دولة حمير وملوكها - ومنهم أبرهة ذو المنار - يعبدون الشمس كإله تنتشر عبادته فى اليمن القديمة حتى حدود الشام.

وإذا كانت كتب الرحالة والمستكشفون الجغرافيين قد أتت. من خلال الخيال الشعبى - بالأعاجيب والأساطير فإننا نلمح موتفات كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وظهر ذلك جليا فى تصوير هؤلاء الرحالة وذكرهم لسكان الجزر التى مروا بها أو تخلفوا فيها فى المحيطات والبحار، بل إننا نجد مسميات هذه الجزر الواردة توحى بما سبق مثل (جزيرة السعالى)(٢٥) و(جزيرة التنين)و(جزيرة واق واق) و(جزيرة سرنديب) وغيرها.

وفي بحر فارس جزر لا تقل غرابة عن جزر المحيط مثل (جزيرة القاس) و(الطوبران) و(الدهلان) وغيرها.

وفي بحر الزنج أو الهند جزيرة (سكسار).

ونتوقف عند بعض الجزر التي ورد اسمها وصفات سكانها بما يتطابق مع ما ورد في رحلات سندباد البحري وما ورد في بعض حكايات ألف ليلة الأخرى ونحن نورد بعضها كنماذج تحقق الهدف منها عن هذه الجزر.

١ـ جزيرة واق واق:

وهي إحدى جزر المحيط، وترتبط بها عدة جزر أخرى منها (جزيرة البنان) و «.. بها قوم عراة الأبدان، بيض الألوان، حسان الصور، يأوون إلى رؤوس الأشجار، ويتصيدون الناس فيأكلونهم..» وملكة هذه الجزائر امرأة تسمى (دمهرة) وتلبس حلة منسوجة بالذهب، ولها نعلان من ذهب، وليس يمشي في هذه الجزائر أحد بنعل غيرها، ومتى لبس غيرها نعلا قطعت رجليه. وتركب في عبيدها وجيوشها بالفيلة والرايات، والطبول والأبواق والجواري الحسان..»(٢٦)

ويضيف أحد الرحالة.. كشاهد عيان، مشاهد أخرى عنها فيقول:

«دخلت على هذه الملكة فـرأيتـهـا عـريانة على سـرير من الذهب، وعلى رأسـهـا تاج من الذهب، وبين يديهـا أربعـة آلاف وصيفة أبكار حسان.

وهن على مذهب المجوس. وهن مكشوفات..»[٢٧]

وفي هذه الجـزيرة نوع من الشـجر «.. تحمل ثـمرا كالنسـاء بصور وأجسام وعيون وأيد، وأرجل، وشعور، وأثداء وفروج كفروج النساء، وهن أحسن الوجوه. وهن معلقات بشعورهن يخرجن من غلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسسن بالهواء والشمس يصحن (وقا واق) حتى تنقطع شعورهن، فإذا انقطعت ماتت وأهل هذه الجزيرة يفهمون هذا الصوت، ويتطيرون منه..»[٢٨]

وفي جـزيرة أخـرى من جـزر واق واق نسـاء يخـرجـن من الأشجار أعظم منهن قدودا وأطول منهن شعورا، وأكمل محاسن، وأحسن أعجازا وفروجا.. ولهن رائحة عطرة طيبة، فإذا انقطعت شعورها ووقعت من الشجرة عاشت يوما أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحضر قطعها فيجد لها لذة عظيمة لا توجد في النساء..»[٢٩]

٢- جزيرة الرخ:

وتتطابق بعض روايات الرحـــالة مع حكايات ورحـــلات السندباد البحري السبعة في ألف ليلة، ومنها حكايته مع طائر الرخ الخرافي..

فـقـد جـاء على لسـان أحـد الرحـالة « .. أنه سـافـر في بحـر الصين، فألقتهم الريح في جزيرة عظيمة كبيرة واسعة، فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم القوس والحبال والقرب، وهو معهم، فرأوا في الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مائة ذراع، فقصدوها ودنوا منها فإذا هي بيضة الرخ، فجعلوا يضربونها بالقوس والصخور والخشب حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل راسخ، فتعلقوا بريشة من جناحه واجتذبوها فنتفت تلك الريشة من أصل جناحه، ولم تكمل خلقة الريشة، فقتلوه، قال: وحملوا ما أمكنهم من لحمه، وقطعوا أصل الريشة من حد القصبة ورحلوا. وكان بعض من دخل الجزيرة قد طبخ من اللحم وأكل، وكان فيهم مشايخ بيض اللحى، فلما أصبح المشايخ وجدوا لحاهم قد اسودت، ولم يشب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا فكانوا يقولون إن العود الذي حركوا به ما في القدر من لحم فرخ الرخ كان من

شجرة الشباب والله اعلم.

قال: فلما طلعت الشمس والقوم فى السفينة، وهى سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوى كالسحابة العظيمة، وفى رجليه قطعة من جبل كالبيت العظيم وأكبر من السفينة، فلما حاذى السفينة من الجو، ألقى ذلك الحجر عليها وعلى من بها، وكانت السفينة مسرعة فى الجرى، فسبقت الحجر، فوقع الحجر فى البحر، وكان لوقوعه هول عظيم فى البحر، وكتب الله لنا السلامة، ونجاها من الهلاك..»(٣٠)

٣- جزيرة سكسار:

وماورد من روايات حول جزر واق واق وجزيرة الرخ يدفعنا إلى المقارنة بينها وبين حكايات ألف ليلة فنلاحظ:

١- مسميات الجزر تتفق مع ما أورده ابن الوردى وألف ليلة كجزر واق والرخ

٢- تتفق الروايات بينهما فى التفاصيل وتطور الحدث مع اختلاف بسيط فى بعض الجزئيات أو النهايات.. فالحكاية التى دارت حول جزيرة الرخ تنتهى رواية ابن الوردى بنجاة البحارة من حجر الرخ الضخم، بينما تنتهى حكاية سندباد بوقوع

الحجر فوق السفينة وتحطمها وتعلق سندباد بلوح من ألواحها فنجا بذلك.

٣ـ يتبادر سؤال مثار حول هذه الحكايات : أيهما أسبق فى تسجيل هذه الروايات والحكايات وإيرادها : ابن الوردى أم القزوينى أم ألف ليلة؟ ويصعب على أى باحث أن يجيب إجابة قاطعة محققة على السؤال السابق لاحتياجه إلى البحث التاريخى المحقق.

وينطبق ما سبق على ما ورد من روايات وحكايات عن سكان جزيرة (سكسار) و (فى إحدى جزر الزنج أو الهند.. فهم (قوم لا عظام لأرجلهم وسوقهم..»[٣١]

ثم ينقل ابن الوردى عن ابن اسحق رواية تكشف عن المخاطر التى تعرض لها كل من وقع من الرحالة والمسافرين بين أيدى سكان هذه الجزيرة.

يقول ابن اسحق: «.. لقيت رجلا فى وجهه خموش كثيرة، فسألته عنها، فقال «.. كنت فى بحر الزنة مع جماعة، فألقتنا الريح إلى جزيرة (سكسار) فلم نستطع أن نخرج منها لشدة الريح، فأتانا قوم وجوههم وجوه الكلاب وأبدانهم أبدان الناس.. فسيق إلينا واحد منهم بعصا كانت معه، ووقف

جماعة من ورائنا فساقونا إلى منازلهم، فرأينا فيها جماعة وتحوفا، وسوقا وأذرعا وأضلعا كثيرة، فأدخلونا بيتا فيه انسان ضعيف، وجعلوا يأتونا بأكل كثير وطعام غزير، وفواكه طيبة، فقال لنا ذلك الرجل الضعيف: إنما يطعمونكم لتسمنوا، وكل من سمن أكلوه، فجعلت أقلل أكلي دون أصحابي، وصار كلما سمن واحد ذهبوا به وأكلوه حتى بقيت وحدي وذلك الرجل الضعيف..»(٣٢) ونجح ذلك الرجل في الهرب منهم، وسار في الجزيرة - متخفيا - ليل نهار «.. فانتهيت إلى أشجار بها ثمار وفواكه وتحتها رجال حسان الصورة إلا أنه ليس لسوقهم عظم، فقلت لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي، فلم أشعر إلا وواحد منهم راكب على رقبتي وأكتافي، وطوق برجليه على وأنهضني، فذهبت به وجعلت أعالجه لأتخلص منه وأطرحه عني فلم أقدر.. وجعل يخمش وجهي بأظفاره المحددة، فجعلت أدور به على الأشجار وهو يأكل من فواكهها وثمارها، ويطعم أصحابه وهم يضحكون علي، فبينما أنا أطوف به بين الأشجار إذ دخلت في عينيه شوكة من شجرة فانحلت رجلاه عني فرميته عن رقبتي وسرت فنجاني الله بكرمه، وهذه الخموش منه..»(٣٢)

رابعا : الآبار والجبال:

يرتبط وجود الابار فى بقعة جغرافية معينة بالأمطار ، باعتبارها من الظواهر الطبيعية التى ارتبطت بحياة الانسان البدائى ، ومن ثم فقد ارتبطت الأمطار بعبادة الانسان البدائى وشعائره نحو الآلهة المتحكمة فيها على حد اعتقاده ، فقدم لها القرابين والذبائح لاسترضاءها ورفع غضبها وترتبط الابار والعيون والأنهار بالمطر وآلهته ، ومن ثم أصبح تقديسها لدى الشعوب التى جعلت لها آلهة ومعبودات وارتبطت بالسحر الممارس للتقرب به لهذه الآلهة كى تبعد شبح الجدب والجفاف عن أراضيها .

ونظرا لطبيعة شبه جزيرة العرب ، فقد كان الماء والابار والأمطار من أسس حياتها ، ومقومات بقائها واستقرارها .

وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم وكانت تعتبر من طقوس العرب الدينية القديمة ، وكانت « .. تشير بالمثل إلى تقديس العرب القدماء للماء ـ لا بذاتها ـ وإنما بالنظر إلى الأرواح التى تحل فيها ، ولذلك فقد كنا نرى كثيرا من الأماكن المقدسة قد أقيمت فى الجزيرة العربية عند الينابيع والآبار حيث تروى الأرض بالماء ، فتنموا بالمزروعات

ويستسقى منها الناس..»(٣٣)

وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطوررية للابار وعيون الماء، فسنرى شواهد ودلائل تشير إلى أى حد يقدسها عرب الجاهلية «..فقد نصب العرب فى الجاهلية صنمهم المشهور (هبل) عند البئر فى جوف الكعبة..»(٣٤) وأن هذا البئر «.. كانت فى الأصل بئرا مقدسة، كان الناس يلقون هداياهم فيها لاعتقادهم بوصولها إلى الأرواح المقدسة الساكنة فى البئر..»(٣٥)

كما اعتقد عرب الجاهلية .. من خلال أساطيرهم «.. أن فى البئر حراسا من العفاريت يحرسون ما يلقى فيها ..»(٣٦)

وقد حظيت بئر زمزم بمكانة مقدسة لمائها المبارك، ودورها الفعال فى اطعام وارواء الحجيج وتفجر مائها من تحت أقدام سيدنا اسماعيل عليه السلام على حد قول الرواة.

ويتدخل الخيال الشعبى والروايات الأسطورية ليتغير ما تراه من حقائق فترى الروايات الشفهية أن الماء قد تفجر من تحت أقدام جبريل عليه السلام وذلك بعد أن تعرض سيدنا اسماعيل عليه السلام .. وهو طفل لايتعدى عمره ثلاث سنوات وأمه هاجر لظمأ كاد أن يهلكهما «.. فبدا لهما جبريل عليه السلام

فى صورة آدمى، فركض برجله موضع بئر زمزم فنبع من موضع رجله ماء أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وأدسم من السمن، فاستطارت بذلك فرحا، وعصرت فى فيه فرجعت إليه نفسه، وقد كان أشرف على الهلاك ... فقال لها جبريل عليه السلام:

أنها رى، لا تخافى الظمأ، وأنها عين يشرب منها ضيفا من بيت الله تعالى وأن هذا الغلام وأباه سيبنيان بيتا هذا موضعه، ثم تركها، وعرج على السماء..»[٣٧]

وتدور أسطورة فى العراق حول (بئر بابل) .. ففى رواية عن الأعمش «.. أن مجاهدا كان يحب أن يسمع الأعاجيب ويقصدها، فأتى بابل فلقيه الحجاج، فقال له: ما تصنع ههنا؟ قال: أريد أن تسيرنى إلى أرض الحالوت، وأن ترينى أرض هاروت وماروت، فأمر به، فأرسل إلى رجل من الأعيان اليهود وقال: اذهب بهذا فأدخله على هاروت وماروت، ولتنظر إليهما، فانطلق به حتى أتى موضعا فرفع صخرة فإذا هو شبه سرداب، فقال له اليهودى: انزل معى وانظر إليهما ولا تذكر اسم الله تعالى، قال مجاهد: فنزل اليهودى ونزلت معه ونزل تمشى حتى نظرت إليهما وهما كالجبلين العظيمين منكوسين

على رءوسهما والحديد فى أعناقهما إلى ركبتيهما ، فلما رآهما مجاهد لم يملك نفسه أن ذكر الله تعالى ، قال : فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان عليهما من الحديد ، فهرب مجاهد واليهودى حتى خرجا ، فقال اليهودى لمجاهد : أما قلت لك لا تفعل ، كدنا والله نهلك . . »[٣٨]

وللجبال سحرها ورهبتها فى النفوس على مر العصور ، وقد حظيت بعض الجبال شهرة تاريخية ودينية ، واكتسبت قدسية لدى الشعوب كجبل أحد وقاف ، وسرنديب ، وجبل الرقيم وغيرها ، ودفعت قدسية الشعوب لبعض الجبال إلى مبالغات وتصورات تصل إلى حد الأساطير فيقال عن جبل سرنديب أنه « . . بأعلى الصين فى بحر الهند وهو الجبل الذى أهبط عليه آدم عليه السلام ، وعليه أثر قدمه غائصا فى الصخرة طوله سبعون شبرا ، وعلى هذا الجبل ضوء كالبرق ولا يتمكن أحد ينظر إليه ولابد كل يوم فيه من المطر فيغسل قدم آدم وحوله من أنواع اليواقيت والأحجار النفيسة وأصناف العطر والأفاويه ما لا يوصف ، وأن آدم خطا من هذا الجبل إلى ساحل البحر خطوة واحدة وهى مسيرة يومين . . »[٣٩]

ولأحجار الجبال أساطيرها الخاصة بها ، ومن ذلك حجر

(الساموِر) و« .. هو الذى تقطع به جميع الأحجار بالسهولة ..»(٤٠)

وقيل : « .. إن سليمان بن رواد عليهما السلام لما شرع فى بناء بيت المقدس استعمل الحجر فى الصخر ، فشكا إليه الناس من صداع سماع قطع الصخور وشدة جلبتها ، فقال سليمان للجن : أتعرفون شيئا يقطع الصخر من غير صوت ولا جلبة ، قال بعضهم : يا نبى الله أنا أعرفه وهو حجر يسمى (السامور) ولكن لا أعرف مكانه ، فقال : احتالوا فى تعرفه .

فاستدعى آصف بن برخيا وزيره .. إلى آخر الحوار ومادار بين سليمان عليه السلام وطائر العقاب بعد أن وجد حجر (السامور) فى عشه فسأله : من أين لك هذا الحجر الذى ألقيته فى عشك ؟ .. فقال : يا نبى الله من جبل بالمغرب يقال له السامور ، فبعث بالجن مع العقاب إلى ثلك الجبل فأحضر له من حجر السامور كالجبال ، فكانوا يقطعون به الحجارة من غير صوت ولا صداع ، وأسكت الناس ..»(٤١)

ومن الأحجار - ذات الخصائص العجيبة - (حجر المغناطيس) الذى ذكره ابن الوردى بخصائصه وتأثيره ، وذكر فى إحدى رحلات سندباد البحرى ، يقول ابن الوردى عن هذا الحجر « ..

أجوده ما كان أسود مشربا بحجرة ويوجد بساحل الهند والترك ، وأى مركب دخل هذين البحرين ، فمهما كان فيه من الحديد طار مثل الطير حتى يلصق بالجبل ، ولهذا لا يستعمل في مراكب هذين البحرين شيء من الحديد أصلا . .»(٤٢)

الهوامش

(١) فؤاد قنديل / أدب الرحلة في التراث العربى / الهيئة العامة لقصور الثقافة - يوليه سنة ٩٥ ص ٢١ .
(٢) السابق ص ٢١ .
(٣) سورة الملك - آية (١٥) .
(٤) سورة يوسف - آية (١٠٩)
(٥) ابن الوردى / فريدة العجائب وفريدة الغرائب / المقدمة ص ٣ .
(٦) عجائب المخلوقات للقزوينى ط خامسة - الحلبى - سنة ١٩٨٠ .
(٧) عجائب المخلوقات - المقدمة ص ٣ .
(٨) المقدمة ص ٤ .
(٩) ابن الوردى / خريدة العجائب ص : ١٥ ، ١٦ .
(١٠) السابق ص ١٦ .
(١١) ابن الوردى . خريدة العجائب ص : ٦٨ ، ٦٩ .
(١٢) السابق ص : ٧٠ ، ٧١
(١٣) السابق ص ٧١ .
(١٤) السابق ص ٦٩
(١٥) ابو شهبه / الاسرائيليات ص ١٤٣
(١٦) صلاح الدين الهادى / اتجاهات الشعر فى العصر الأموى / الخانجى سنة ٨٢ ص ٢٤ .
(١٧) ابن الوردى ص ٨٠ .
(١٨) ابن الوردى ص ٨٩ .
(١٩) السابق ص / ٨٩ ، ٩٠ .
(٢٠) ابن الوردى ص ٩٠ .

(٢١) السابق ص ٩٠ .

(٢٢) السابق ص ٩٠ .

(٢٣) السابق ص ٩٢ .

(٢٤) ابن الوردى / خريدة العجائب ص ٩٣ .

(٢٥) عرفت السعالى فى الشعر الجاهلى أنها من الجن .

(٢٦) خريدة العجائب ص ١٠٣ .

(٢٧) السابق ص ١٠٣ .

(٢٨) السابق ص ١٠٤

(٢٩) السابق ص ١٠٤ .

(٣٠) خريدة العجائب ص ١٠٢ .

(٣١) السابق ص ١٢٥ .

(٣٢) خريدة العجائب ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣٣) د. ثناء أنس الوجود / رمز الماء فى الأدب الجاهلى / مكتبة الشباب سنة ٨٦ ص ٤٢ .

(٣٤) السابق ص ٤٢ .

(٣٥) ، (٣٦) السابق ص ٤٣ .

(٣٧) السابق ص ٤٧ نقلا عن تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٦٧ .

(٣٨) السابق ص ١٤٧ .

(٣٩) السابق ص : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤٠) السابق ص : ١٦١ .

(٤١) خريدة العجائب ص : ١٦٣ ، ١٦٤

(٤٢) السابق ص ١٦٦ .

الخاتمة

وأخيرا .. فإننا لا نستطيع الوقوف صامتين أمام الحقائق متهيبين من ارتياد التراث العربى القديم ، لأنه اقتحم قدسية كتب الدين بما فيها من حقائق أو أباطيل، أو نحاول إماتة الحقيقة لأنها تعرضت للمقدسات أو المسلمات . كما أننا - وصولا إلى الحق - يجب أن نتجاوز حدود الرهبة، ونميز بين ما هو حقيقة علمية، وما هو خيال أسطورى .

وقد تناولت الأسطورة ومفهومها كأصل إلى التمييز بينها وبين العلم، ثم نطبق هذا على ما تعرضت له من أبحاث فى التراث العربى القديم.

ويجدر بنا أن نستخلص ترجيحا عن لنا وهو أن الأسطورة والإسرائيليات كانت منبعا خصبا، ومصدرا ثريا لبدايات فن القص، وارهاصات تمهيدية لما عرف حديثا بفن الرواية، وإن كانت لم تتشكل لدى الفنان العربى ببنائها الحديث أو المعاصر

أو تصبح فنا يضاهى ما عرفه الغرب مؤخرا، وصلت إلينا تلك الإرهاصات والبدايات فى ثوب أسطورى فضفاض، ولم تكن - حين وصلت إلينا - فى بنائها أقل من القصص المعاصرة من حيث عناصرها الفنية من حوار أو تصوير أو الاهتمام بالتطور الحدثى أو إثارة عنصر التشويق فى أقصى درجاته لدى المتلقى.

وكان لابد من وقفة نستعرض من خلالها لأشهر رواة الأساطير والإسرائيليات الذين أثمر خيالهم القصصى أروع الأساطير فى الاسرائيليات فى كتب لا تقل جاذبيتها عن ألف ليلة وليلة ومن هذه الكتب التراثية فى هذا المضمار التيجان فى ملوك حمير لوهب بن منبه، وعجائب المخلوقات للقزوينى وخريدة العجائب لابن الوردى وغيرهم.

ولم تقف الأسطورة والإسرائيليات عند حدود الكتب السابقة فقط وإنما تغلغلت فى الأدب الجاهلى شعره ونثره، وارتبطت بمعتقدات الجاهليين التى توارثتها الأجيال عبر أزمان موغلة فى القدم يصعب تحديدها قبل الجاهلية الأولى. ومع ذلك فقد صمدت هذه الأساطير لتغال بالزمن والقدم، وامتدت تأثيراتها - بعد تحويرها أو إعادة صياغتها - لنجد ظلال القديم فيها من خلال كتب التراث العربى، فنجد أساطير دارت حول

الجن وعلاقتها بالانسان (الشعراء منهم خاصة) وأساطير ذات تأثيرات جلية على الفكر الديني بدت في أوصاف أو قصص الأنبياء، مثل قصة آدم عليه السلام، ثم تسربت إلى المفسرين وكتبهم كالقرطبي.

ومن البديهي أن التاريخ يسجل الحقائق حول حياة الشعوب والدول والملوك والأحداث ولكن حينما يتعرض التاريخ للأمان الموغلة في القدم إذا بالأسطورة تتسرب فيما أورده التاريخ، فتزيد وتبالغ وتصور ما تعرض له قوم عاد وثمود من أحداث، وما تعرضت له شعوب بائدة كطسم وجديس وشخصيات تاريخية ودينية كشمشون وجرجيس، وما ورد في كتاب التيجان عن ملوك حمير من التبابعة. وقد سجل الرحالة ـ على مر العصور ـ في كتبهم التراثية ما شاهدوه أو رأوه رأى العين كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما، ومن ثم اتصفت كتبهم بالواقعية إلا ما يتدخل فيه اعتقادهم أو ثقافتهم أو فكرهم أو وجهة نظرهم، فإن ذلك كله يوجههم اتجاها اسطوريا بدا في حديثهم عن كيفية خلق الأرض واستقرارها بعد تكوينها على ياقوتة أو قرن ثور، أو ملك عملاق، وتثبيتها بحبل، ثم تلك المدن والمناطق الأثرية خاصة الموجودة في شبه الجزيرة العربية

والتى تظهر وتختفى لبعض الناس ، وما فى هذه المدن من قصور ذات أوصاف اسطورية.

ولم تسلم المحيطات والبحار والجزر من وجود شعوب يتفنن الرحالة فى وصف خلقتها وسلوكها العجيب الغريب، والتى نجد مثيلاتها فى ألف ليلة خاصة رحلات السندباد البحرى، هذا إلى جانبْ ما ارتبط بالآبار والجبال من معتقدات شعبية مازال صداها يحيا بيننا حتى اليوم، من قصص الجان، وجبال المغناطيس ، وغيرها.

ونود أن نقول - فى النهاية - إن الهدف من بحثنا هو تقديم الكنوز التراثية القديمة من خلال ما فى بطون الكتب القديمة من أساطير واسرائيليات كانت تفسيرا منحرفا فالحقائق علمية فى الثقافة الاسلامية ثم محاولة منا لنعترف أن هذا التراث كان مرحلة فكرية لزمن قديم نأخذه على أنه متعة ذهنية للمطلعين عليه، والمتلقين له دون إيمان به حتى لا يطغى الخيال على مفاهيمنا فينحرف بنا السبيل.

الفهرس

من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠٠

١ - قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين .... يحيى حقى
٣ - سيد درويش .... محمد دواره
٤ - المجذوب.................. فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن .... كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى...... د. نبيلة ابراهيم
٧ - ابداعية الأداء جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب
٨ - ابداعية الأداء جـ ٢ .... د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى ... ابراهيم حلمى
١٠ - موال ادهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم
١٢ - المغازى .... د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على
١٥ - فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة

١٦ – الظاهر بيبرس ....د. عبد الحميد يونس
١٧ – الحكاية الشعبية ....د. عبد الحميد يونس
١٨ – خيال الظل ....د. عبد الحميد يونس
١٩ – الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة .... سعد الخادم
٢٠ – الفن الإلهى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ – النيل فى الأدب الشعبى ....د. نعمات أحمد فؤاد
٢٢ – الفولكلور فى العهد القديم جـ١ ...... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٣ – الفولكلور فى العهد القديم جـ٢ ...... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٤ – الفولكلور فى العهد القديم جـ٣ ...... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٥ – حكاية اليهود .... تأليف : زكريا الحجاوى
٢٦ – عجائب الهند .... تقديم يوسف الشارونى
٢٧ – حكاية اليهود ط ٢ .... زكريا الحجاوى
٢٨ – الحُلى .... د. عبد الرحمن زكى
٢٩ – أبو زيد الهلالى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٣٠ – السيد البدوى ودولة الدراويش..... محمد فهمى عبد اللطيف
٣١ – التاريخ والسير .... د. حسين فوزى النجار
٣٢ – خيال الظل .... د. ابراهيم حمادة
٣٣ – فرق الرقص الشعبى فى مصر .... عبير السيد
٣٤ – مباحث فى الفولكلور .... محمد لطفى جمعة
٣٥ – نجيب الريحانى .... عثمان العنتبلى
٣٦ – عالم الحكايات الشعبية .... فوزى العنتيل
٣٧ – الزخارف الشعبية على مقابر الهو .... محمود السطوحى
٣٨ – الفولكلور ما هو ؟ .... فوزى العنتيل
٣٩ – سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الأول

الإصدارات القادمة

- البطل فى الوجدان الشعبى
محمد جبريل
- الشعر الشعبى الساخر
د.محمد رجب النجار
-
-

رقم الإيداع : ١٥٦٦٤ / ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)

الأسطورة والإسرائيليات

ما دفعنا لنشر هذا الكتاب أن الدراسات المتخصصة فى علم الأساطير عندنا قليلة بل نادرة إن لم تكن شديدة الندرة لدرجة أننا لا نكاد نتذكر كتابا ثانيا إلى جانب كتيب الدكتور أحمد كمال زكى عن الأسطورة، ورأينا أن كتاب د. لطفي سليم قد يفيد القارىء والباحث معاً في محاولة لاستكناه الأسطورة وهي داخلة في عصب القوام الثقافى للشعوب العربية.

•••

جنيه واحد

الأمل للطباعة والنشر